

دكتور سوقي ضيف

البطولة في الشعر العربي

اقرأ



رئيس التحرير أنيس منصور

الدكتور شوقي ضيف

البطولة في الشعر العربي

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من الموضوعات التي طالما تغنى بها شعراؤنا على مر الزمن بطولة الآباء والأجداد في معاركهم مع الأعداء ، وما سقط من شررها على ألسنتهم وألسنة الشعراء . وقد عدت أدراجي مصعداً في الزمن حتى العصر الجاهلي ، فرأيت الروافد التي صبّت في نهر بطولتنا العظيم ، وهي روافد متعددة منها الحربى الذى يقوم على الاستبسال فى القتال ، ومنها النفسى الذى يقوم على احتمال الشدائد والحلم والحزم والأمانة والعزة ، ومنها الخلقى الذى يقوم على صيانة الشرف وعلى الكرم والوفاء بالعهود وحماية الجار . وبذلك تعانقت من قديم بطولة السيف مع بطولة النفس والخلق والطموح إلى المثل الرفيعة من مثل الإباء والأمانة والشعور بالعزة والكرامة والنجدة وإغاثة الملهوفين وإطعام الجائعين .

ثم كان الإسلام فأذكى هذه البطولة بمعانيها الثلاثة ، وأمدّها بروحانية مضطربة ، جعلها تزداد تلمظاً واشتعالاً . وخرج العرب من جزيرتهم يحملون في يد مشاعل دينهم الحنيف ، وفي اليد الثانية سيوفهم ومن تحمهم خيولهم تصهل ملوحة بأعراقها، وعزيمتهم تطوى لهم المسافات المغرقة في المبد طياً ، يريدون أن ينشروا الإسلام في أطباق الأرض ، مرخصين مهجهم وأرواحهم في سبيل نشره . وتقتسم جموعهم العالم ،

فقسم يتجه تلقاء فارس ، وقسم يتجه تلقاء الشام ، ثم يتجه قسم تلقاء مصر ، وتندحر جيوش الروم والفرس . ويصبح العالم ملك أيديهم يثبتون فيه ويمحون . ويتبعون الروم إلى البحر ، ويصبح فرسان الصحراء فرسان الدأماء ، ويمخر أسطوهم البحر المتوسط وترتعد منه فرائص الأعداء .

ويمتد السيل الكاسح شرقاً حتى أواسط الهند وأبواب الصين ، ويمتد غرباً حتى مشارف البرانس ، وتدين للعرب الرقاب في المشارق والمغرب ، تدين لجهادهم وبسالتهم وبطولتهم الخارقة . ويحتفى الروم منهم بجائز آسيا الصغرى وقلوبهم تمتلئ بالفزع والرعب ، وأبطال العرب من مثل سيف الدولة يجرعونهم الغصص ويفتكون بهم في الحروب فتكاً ذريعاً . وينزل الصليبيون في الشام والموصل ، وتتعبهم أمداد لا تكاد تحصى ، ويظنون ظناً فاثلاً أنهم سيقيمون إلى الأبد ، ويخيب ظنهم وفألهم إذ ينهض لهم نور الدين وصلاح الدين وبيرس وأنبادهم من الأبطال العظام فيحطمونهم حطماً ، ويستحيل الشام بركاً من دماهم ، وتعود بقاياهم محملة بالخزى والعار . وسرعان ما يتبعهم التار مهزومين مدحورين .

ويستقبل العرب العصر الحديث والدولة العثمانية توشك أن تنهار فتستصرخهم وينجدونها في بعض حروبها مع الدول البلقانية وفي كريت . وتقتسم الدول الاستعمارية ديارنا ، وتحتدم في كل دار معركة من معارك التحرير ، يخوض النضال فيها الشعوب وفي مقدمتهم أبطال يزلزون المستعمرين زلزلاً شديداً ، ومايزالون يُسنزلون بهم ضربات قاصمة

حتى يستسلموا خائعين ، وتسترد ديارنا حرياتنا واستقلالنا . غير أن خبثهم أداهم إلى أن يُسبِّقوا من ورائهم إسرائيل لتكون لهم نقطة ارتكاز ، وحتى تكون إسفيناً يفصل بين البلاد العربية فلا تتم لها وحدة ، وليحطموا عن طريقها قدراتها الاقتصادية كلما رأوها تنهض على قدميها .

ولن يفتّ في عضدنا ما حدث في حرب يونيه ، ولن يفقدنا ثقتنا بأنفسنا ، بل إنه سيشدّ من عزائمنا لنسترد كرامتنا وشفقنا الحربى ، ولننقذ بقعة غالية مقدسة من وطننا اغتصبها ظلماً وعدواناً عصابات باغية . ومن أكبر الدلائل على أن هذا الأمل المعقود سيتحقق عن قريب انبعاث الفدائيين الفلسطينيين للأخذ بالثأر ، ثأر المدبوحين في دير ياسين وكفر قاسم ، والمحبوسين بالمئات في سجون التعذيب ، واللاجئين المشردين الذين نُهبَت بصورة وحشية أراضيهم وبيوتهم وثمارهم وكرومهم ، ولم يبق لهم سوى اعتصار الصخور . ولا بد للذئاب من أن تنهزم ، ولا بد لليوث من أن تنتصر ، ولا بد للظلام الداجى من أن ينحسر ، ولا بد للصباح المضيء من أن ينبثق وتعم أنواره .

القاهرة فى أول يونيه سنة ١٩٧٠ م .

شوقى ضيف

معنى البطولة

البطولة في اللغة الغلبة على الأقران ، وهي غلبة يرتفع بها البطل عن حوله من الناس العاديين ارتفاعاً يملأ نفوسهم له إجلالا وإكباراً ، وقد يماً كان البطل في القبيلة وفي عهود الحياة الأولى للأُم يعد شخصاً مقدساً ، بل لقد كانوا يظنونه أحياناً من سلالة الآلهة ، وكأنه هبة تهبها لهم ، حتى لا يقفوا فريسة لمن سواهم ، وحتى لا يسقطوا في مهاوى لا تزار لها من الاضمحلال والفناء . وعلى نحو ما كانوا يقفون أمام خوارق الطبيعة مشدوهين حائرين شاعرين كأنما تحوطها هالة سحرية ، كانوا يقفون أمام البطل مذهولين كأنما يستر في طواياه قوى خفية ، وهي قوى مكنت له في رأيهم من الإتيان بالخوارق في البسالة وقتال أعدائهم ، وهي خوارق لا تقف عند نجاحه من القتل بل تمتد إلى نجاحهم معه نجاة جعلتهم يشعرون بقوة أنه هو الذي يهبهم الحياة . ومن أجل ذلك عبده أحياناً، وخاصة في عهود الإنسانية الأولى، حتى ليطلق على بعض فرائها فترة عبادة الأبطال ، حين كانوا يتراءون لمن حوطم رموزاً لقوى خفية غيبية مجهولة ، أو بعبارة أخرى رموزاً لأشياء إلهية مقدسة ، بل كأنما الآلهة هي التي أنجبتهم لحماية من حوطم بما يأتون من معجزات القوة والشجاعة ، وهي معجزات دفعت الناس إلى عبادتهم أحياناً كأنهم حقاً آلهة ييدهم حياتهم وكل ما يحفظها عليهم من أسباب الرزق والبقاء .

ويتضح هذا العصر في تاريخ اليونان القديم ، حين مضت تباشير هذا التاريخ تبليج في أفق حياتهم المظلم الكثيف منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد حتى القرن التاسع . وفي هذا الزمن السحيق كان يحكمهم ملوك آمنوا بأنهم من سلالة الآلهة ، لما امتازوا به من بطولة نادرة ومن بأس عات شديد . وقد نسجوا حولهم كثيراً من الأساطير المغرقة في الخيال ، غير فارقين بينهم وبين آلهتهم في صور الحياة والأحداث وما يتزولونه على الناس من صواعق الموت الذي لا يبقى ولا يذر ، بل لقد كانوا يخلطون آلهتهم بهم اختلاطاً يجعل لهم نفس النوازع البشرية وكأنما طبيعتهم هي نفس طبيعتهم الإنسانية بكل عواطفها في الحب وغير الحب وبكل أهوائها وضروب سلوكها وكل أحقادها وصنوف خصوماتها . وبذلك وضعوا الآلهة والأبطال في مرتبة واحدة ، سواء في السلم أو في الحرب والقتال ، إذ كانوا يقتتلون معهم ، وتارة يمدونهم بالنصر ، وتارة يتخلسون عنهم فيذوقون الموت أو يذوقون الذل والهوان .

وأخذت تتكون في هذه الفترة المتعمقة في القدم أساطير كثيرة في مخيلة اليونان عن أبطالهم وآلهتهم ، لم يلبثوا أن رتلوا فيها أناشيد شعرية وأخذت هذه الأناشيد - كما أخذت هذه الأساطير - تتضخم ، ولا تصل إلى القرن العاشر قبل الميلاد حتى نجد هوميروس يسوى منها قصيدته القصصيتين الطويلتين « الإلياذة » و« الأوديسا » ونكتفي بالوقوف قليلا عند أولهما لتستبين لنا شخصية هذا الشعر القصصي القديم ، وكيف كان يقوم على تصوير مغامرات بعض الأبطال اليونانيين وما يتصل بتلك المغامرات من أحداث الحروب ومن الأساطير .

والقصيدة. تألف من نحو خمسة عشر ألفاً من الأبيات ، وهي تصف أحداث الأسابيع الأخيرة من حرب اليونان مع أهل طروادة في آسيا الصغرى لمدة عشر سنوات كانت الحرب فيها سجالات بين الفريقين ، وتقول أساطيرهم إن بارس بن بريام ملك طروادة حكم للإلهة « أفروديت » بأنها أكثر جمالا وفتنة من زميلتها « هيرا » و« أثينا » مما جعلهما تمييزان غيظاً منه ، في حين رأت أفروديت أن تجزيه جزاء حسناً فوعدهت الاقتران بهيلين الفاتنة زوجة منيلاس ملك إسبرطة . وأبحر بارس إلى اليونان ونزل ضيفاً على الملك ، ولم يلبث أن أغرى زوجته بالفرار معه إلى بلاده ، وفرت راضية . وبدأت محنة الحرب ، إذ استصرخ الملك أخاه أجا ممنون وأبطال اليونان من أمثال أخيل ، فلبوه غاضبين ، ولبسته جموع كثيرة عبرت البحر في مقدمتها قائدها أجا ممنون يحمل لواء قومه . وما إن علم الطرواديين حتى استنجدوا بأمرأ آسيا الصغرى وجاءهم من كل حذب ينسلون ، وأجمع رأيهم على أن يكون قائدهم ابن بريام الأكبر « هكتور » البطل المغوار زوج أندروماك . والتقت الفئتان وانقسمت الآلهة بين المعسكرين المتحاربين ، وكان طبيعياً أن تنصر اليونان هيرا وأثينا ، وأن تنصر الطرواديين أفروديت ، ووقف زيس كبير الآلهة على الحياد . وظلت الحرب مشتتة نحو عشر سنوات كما أسلفنا ، ثم يحدث خلاف بين أجا ممنون وأخيل . ومن هنا تبدأ قصة الإلياذة ، إذ اتخذ هوميروس من هذا الخلاف الأصل الذي تفرعت عنه أحداث الأسابيع الأخيرة ، فقد غضب أخيل من أجا ممنون وامتلاً قلبه غيظاً وموجعة لاغتصابه فتاته « بريسيس » التي سبها في

بعض معاركه ، وقفل راجعاً إلى سفينته ، واعتزل الحرب وقومه ، وكانت أمه نيتس من عرائس البحر ، فجاءته تسأله ما الخبر ، فروى لها صنيع أجا ممنون معه ، وطلب إليها أن تصب عليه غضبها ، وأن تستعين عليه بالآلهة ، وتجأ إلى زيس . ويحتمد القتال بين اليونان والطوراديين وينكل بهم الأخيرون ، ويقتلون نفرأ من أبطالهم العظام ، يقتلهم هكتور ، وفي مقدمتهم باتروكلوس صديق أخيل وصنوفسه ويفزع اليونانيون إلى أخيل ، ويرد إليه أجا ممنون فتاته ، وتأتيه أمه بدرع نسجته له بعض الآلهة ، وينزل حومة القتال ، ويلتقي بهكتور ، فتدور عليه الدوائر ، بينما زوجته وأبواه يعولان بالنشيج والدموع الغزار . ويسترد الطوراديون جثة بطلهم لقاء فدية كبيرة لأخيل ، ويودعونه بجزاة رهبية يحف بها النحيب والعويل . وبذلك تنهى الإلياذة .

وواضح أن البطولة في الإلياذة بطولية أسطورية تتصل بأبطال وآلهة أسطوريين ، وليس بيدنا عن العصور العربية القديمة شيء من هذه البطولة التي تتشابه فيها الوشائج بين الأبطال والآلهة ، وكأنما قد اجتاز العرب في أقدم عصورهم التاريخية - وأقصده العصر الجاهلي - هذا الدور الفطري ، الذي يشترك فيه الأبطال والآلهة في أحداث الحروب . ولعل هذا هو السبب الحقيقي في أن العرب لم ينظموا القصائد القصصية الطويلة ، وبعبارة أخرى لم يعرفوا الشعر القصصي الذي تطول قصائده طويلاً مسرفاً ويشيع فيها التسلسل القصصي الدقيق ، وكأننا بإزاء قصة كاملة غير أنها نُظمت شعراً . ولا بد أن نشير هنا إلى أن اليونان سجلوا البطولة في صورة شعرية أخرى هي صورة الشعر التمثيلي الذي

يكتب للمسرح والذي تصوّر فيه مأسى الأبطال . وقد درس أرسطو
المأساة دراسة نقدية عميقة ملاحظاً أنه لكي تحدث مأساة البطل
لا بد أن يكون به ضرب من ضروب النقص يهيئه لمأساته ، لأنها لا تهبط
عليه من السماء بل تنزل به نزولاً طبيعياً ، وكأنها مصيره الذي يفضى
إلى دماره . ولم يعرف العرب هذا النوع من البطولة المسرحية ، لسبب
طبيعي ، هو أنهم لم يعرفوا قديماً المسرح وما يعتمد عليه من حوار
بين الممثلين وقصة تتلاحق فيها الحركة والمشاهد والمناظر المختلفة .

ومعنى ذلك أن العرب لم يعرفوا قديماً البطولة المسرحية ولا البطولة
الأسطورية ، وإنما عرفوا البطولة الواقعية ، بطولة يرتفع فيها صاحبها
عن الأشخاص العاديين من حوله بقوته وبسالته وإقدامه وجرأته
وتغلبه على أقرانه ، وهو منهم ، من ذات أنفسهم لا من سلالة الآلهة ،
وأنصاف الآلهة ، بشعرٍ سوى لا يعلو على الحدود البشرية الإنسانية ،
وبطولته لذلك تتفجر من وجوده الإنساني البشري لا من ينابيع إلهية
أو سحرية غيبية ، بطولة إنسانية لا تتشح بقوى خفية ، بل تستمد
من الواقع وحقائقه لا من الخيال وخوارقه ، وهي بطولة تستند على قوة الجسد
والبأس الشديد ، بأساً يدفع غائلة الوحش والقبائل المجاورة بكل ما
استطاع البطل العربي القديم في صحرائه من اتخاذه عدة له في القتال ،
عدة ليس فيها ما صنعتها الآلهة له كي تعينه على النصر ، بل كلها
من صنع الإنسان ، سواء الدرع أو السيف أو الرمح أو القوس
والسهام . وبالمثل الخيل التي يصول ويحول عليها الفرسان وهي تصهل
من تحمهم ليست خيلاً من السماء ، بل هي خيل من الواقع ، تربت في

أحضان الصحراء ، بل تربت في أحضان الأبطال ، حتى ليحس كل منهم أن فرسه بضعة من نفسه ، بل لكأنها جزء لا يتجزأ من نسبه في آبائه وقبيلته أو عشيرته فهو فارس الشهباء أو البيضاء أو الورد ، ولعلمهم لذلك اهتموا بأنسابها اهتمامهم بأنسابهم دلالة على الأصالة والمنقاسة ، وكأنها فصلت من ذات نفوسهم وقلوبهم وتاريخهم وحياتهم .

ولم يقف العرب قديماً ببطولتهم عند جانبها الحربى ، فقد اتسعوا بمعناها حتى شملت البطولة النفسية ، وهى بطولة أدت إلى كثير من الشرائع الرفيعة . من ذلك الحلم وهو فى واقعه تغلب على ثورة الغضب ، أو قل هو تغلب بطولى على الترقى والطيش . ومن ذلك الصبر على الشدائد ، وهو بدوره تغلب على الملح والفرع إزاء المصاعب واقتحام المعاطب ، وما قد ينزل من الخطوب والنوائب ، والبطل لذلك لا يشكو ، بل يتجرع الغصص فى صمت محتملاً إياها أقوى احتمال . ومن ذلك الخزم وهو بدوره تغلب على التردد فى الرأى قبل أن تفلت فرصته من يد الشخص ، فهو يسلك الوجه الذى يجب أن يسلك ، لا يفوته تديره فى التو والساعة .

ومن ذلك الكرامة ، وهى بدورها تغلب على صغار النفس وشهواتها الوضيعة وانحراف عن الغايات الدنيا إلى الغايات السامية العليا فى إباء وشم وأنفة وعزة ، وأى ضيم وأى هوان دونها الموت الزؤام .

وتتمزج هذه البطولة النفسية وأختها الحربية عند القدماء ببطولة خلقية ، أسبغت عليهم القوة إزاء غرائزهم ، حتى ليخيل إلينا كأن العربى فى صحرائه وجاهليته مع ما أوتى من الشجاعة التى تتيح له تحقيق مآربه كان يعمل جاهداً على قهر تلك الغرائز ، بل لكأنما

كان يجد لذته في قهرها ، فإذا هو يعفّ عفة عن كل متاع مادي ، حتى في الحرب وعند المغنم وجمع الأسلاب . ومن هنا نحس أنه كان يسعى في قوة إلى طائفة من المثل الخلقية العليا ، ولم يكن مثّل يعنيه كمثل الشرف ، فهو يحافظ على حقوقه وهي حقوق تمتد في بعض جوانبها ؛ فتصبح واجبات اجتماعية وبطولية ، وخاصة حين تتعرض قبيلته لعدوان من قبيلة مجاورة ، وإنه لينقلب ، حين تسبى بعض نساء عشيرته ، فظناً معتدياً لا يشفيه من أعدائه إلا سفك الدماء ، فكل شيء إلا عار سباء النساء ، وكل شيء إلا انتهاك العرض وحرماته ، إذ يصبح أسداً كاسراً كل لذته أقتراس الأعداء الذين امتهنوا حيماء وداسوا مدارج عزه وشرفه . ومثل أعلى رفيع آخر آتى ثماراً كثيرة ، هو مثل الكرم الذي سند بطولة الجاهليين ودعمها دعماً ، فقد نبتت جذوره في أعماق التغلب على شح النفس ، ولم تلبث غصونه أن ارتفعت وانتشرت لا في سماء العشيرة أو القبيلة وحدها ، بل في سماء الجزيرة كلها : فإذا الكزيم يشبع الجائع من قومه ، ويةرى الضيف أي ضيف حتى لو كان من خصومه . وتلتقي مع شجرة الكرم فروع وغصون كثيرة ، إذ يفرّج البطل الكزيم غمة كل مكروب . وإذا كان قد حمى الجائعين من كربة الجوع فأولى أن يحميهم من كُرب التشرد في متاهات الصحراء حتى لو نبذتهم قبائلهم لبعض الجنايات ، وخاصة حين يلجأون إليه مستجيرين فإنه يلحقهم بعشيرته ، وتصبح لهم نفس حقوق أبنائها ، عهد لا بد أن يوفوا به مهما ضحوا في سبيله . وكانوا يجلون الوفاء والحفاظ على العهود إجلالاً لا حدود له .

وعلى هذا النحو عانقت البطولة الحربية عند العرب قبل ظهور الإسلام بطولة خلقية اجتماعية : جعلت أبطالهم ومن ورائهم عشائرهم وقبائلهم يسعون إلى تحقيق طائفة من المثل العليا ، ويلحون في السعى . حتى استقامت لهم شمائلهم ومناقبهم . وبالمثل عانقت بطولتهم الحربية بطولة نفسية جعلتهم يسعون إلى تحقيق طائفة أخرى من تلك المناقب وكانوا يتصايحون بها صياحاً عالياً ، ويتخلل هذا الصياح هتافهم الذى لا ينقطع بالبسالة والشجاعة ومنازلة الأقران وإزهاق نفوسهم وسفك دماهم . ولكن من أبطال الجاهلية دواوين تمتلئ بضجيجهم وبيان ما أنزلوا بأعدائهم من الموت الساحق الذى لا يبقى ولا يذر : كما تمتلئ بمثلهم النفسية والخلقية التى كانوا يحرصون عليها حرصهم على أرواحهم مزددين الصغائر والشهوات في سبيل مطامح النفس الكريمة التى تعرض عن النقائص وتمتنع عليها ، وسبيل الحقوق والواجبات القبلية ، وما يتطلبه الشرف والمجد العريض من خصال نبيلة . ولم يتغن الأبطال وحدهم بهذه البطولة وشعبها الثلاث : الحربية والنفسية والخلقية الاجتماعية : بل تغنى بها ومضى يعظمها ويمجدها الشعراء في كل حى وكل عشيرة وكل فج من فجاج البوادي : متخذين من مديحهم لأبطالهم أداة لهذا التمجيد والتعظيم ، وصنعوا نفس الصنيع بمراثيمهم ، إذ حولوها ما تم لتأبين أبطالهم وبيان المعاني والمثل الرفيعة التى تجسدت فيهم ، وكانما يريدون أن يخلدوهم ويحفظوا في ذاكرة معاصريهم والأجيال التالية أن شخصهم المادية إن كانت قد بليت وفنيت فشخصهم المعنوية حية باقية إلى أبد الأبدين .

في الجاهلية

تحوّلت الجزيرة العربية في الجاهلية إلى ما يشبه ساحة حربية كبيرة تقتتل فيها العشائر والقبائل ، وفي كل جانب يتصايح الأبطال وتُسهر السيوف وتلمع الرماح وتصوّب النبال وتدق الأعناق وتسيل الدماء ، والضباع والذئب والنسور والعقبان تتخاطف الأشلاء . وقد يرتفع صوت ضئيل نحيل كصوت زهير بن أبي سلمى بالدعوة إلى السلام وأن تضع الحرب أوزارها ، ولا سميع ولا مجيب . فقد أصبح الطعن والقتال والحرب والتزال فريضة الحياة ، وكل يكشر عن أظفاره ممتشقاً حُسامه ، يقاتل حتى يُقتل تحت ظلال السيوف قتلة شريفة ، حتى ليعد عندهم سبّة ما بعدها سبّة أن يموت الإنسان على فراشه حتف أنفه ، شأن الجبناء الذين ينكلون عن الحرب ، وما الجبن بمنجيهم من الموت ، فالموت غاية كل إنسان ، وإن استقبله برباطة جأش خير من استدباره ، بل إن خوض غماره ليمدّ في أسباب الحياة ، إذ يتدرب المقدم على الطعان حتى إذا حانت لحظة التزال حمى نفسه ، أما الجبان فيموت رعباً قبل أن يموت طعناً باللسان ، وهل يمكن أن يكون للجبان في هذا المجتمع الحربى مكان يطمئن إليه ؟ إنه أول من يقتل وأول من ترتعد فرائصه ويهوى صريعاً ، أما الشجاع الجريء ففي حصن من شجاعته وفي حماية من جرأته ، يستعذب الموت ويسترخص القتل ، وكأنه

يسرع الخطو إليه ، يحدوه إقدام لا يعرف المبالاة ولا الإحجام ،
إنما يعرف شق الجباه وطعن النحور وإزهاق النفوس .

وحقاً كانوا عشائر وقبائل راحلة وراء مساقط الغيث ترعى الأنعام
والأغنام ، ولكن كأن هذه الرحلات لا تمثل صميم حياتهم ، إنما تمثلها
السيوف المشرعة والسهام المفوقة ، وكأنهم كتاب مجهزة ، تقتحم الوقعة
تلو الوقعة ، وفي كل وقعة تجمع الأشلاء وتبكي الصرعى من الأبطال
الشجعان ، ولا تلبث أن تعود إلى القتال أشد حفيظة ووجداً ، تريد
أن تجتث أعداءها من الأرض اجثنائاً وتستأصلهم استئصالاً حتى لا تبقى
لهم باقية . وقانون أقاموه بينهم ألا يستصرخ أحد من أبناء العشيرة قومه
إلا طاروا إليه بجمعهم دون أناة أو سؤال له عن سبب الصراخ والاستغاثة
وهو قانون النجدة ، كل يبادر لنجدته وكل يحمل سلاحه ، بل كل
يستل سيفه يريد أن يغمده في صدور أعدائه . ووثق هذا القانون
عندهم وأحكمه قانون كان يقوم عندهم في الحرب مقام المركز من الدائرة ،
فعليه تقوم ومنه تصدر ، وإليه ترد ، وهو قانون الأخذ بالتأثر ، فن
قتل من عشيرة شخصاً من عشيرة أخرى تبعه هو وعشيرته ثأره ، فلا يُطَلَّ
دمه ، أو بعبارة أخرى لا يذهب دمه هدرأ ، بل لا بد أن يثار له قومه
ولا بد أن تسفك من أجله الدماء . ويدخل الطرفان المتقابلان في معارك
لا تنتهى ، إذ لا يمكن منها الخلاص ، فداثماً مقتولون ، وداثماً معارك
طاخنة ، لا يكادون يفرغون من إحداها حتى تنشب معركة جديدة
أكثر فتكاً وأشد هولاً ، وكأنما أصبح سفك الدماء سننة من سننهم ،
بل وكأنما أصبح غريزة من غرائزهم ، فهم لا يصبرون عليه ، وهم

دائماً عطاش لرؤيته ، وخاصة إذا كان إدراكاً لثأر ، فإنهم يحرمون على أنفسهم كل متاع للحياة ، فلا يقربون الخمر ولا النساء ولا يصلحون أى شأن من شئونهم فى الثياب أو الزينة ، بل يفرغون للحفيظة ولا تزال صدورهم تغلى بالموجدة ، ومن حولهم نساء العشيرة يبكون القتل ويستثيرون ببطلته ومناقبه رجالها حتى يغسلوا عنهم عار قتله بما يسفحون من دماء قاتله ودماء قومه .

الثأر ، الثأر ، كلمة كانت تدوى فى كل حى وفى كل عشيرة ، فدائماً دم مسفوح ، ودائماً شر معقود ، ودائماً رماح تطعن فى القلوب ودائماً سيوف تحز فى الرؤوس ، ودائماً حرب وطعان ، وكأن أوقات السلم إن هى إلا لحظات لالتقاط الأنفاس ، ثم تليها كوارث الحرب وما يتهاوى فيها من الشجعان والأبطال ، حتى ليصبح المقتول فخرآ لقبيلته ، مثله مثل القاتل ، إذ كم من عدوان رده عن قبيلته ، وكم من أعداء شارك قبيلته فى تمزيق جموعهم ، وكم ظل يذود عنها ويحامى ويقاتل حتى قتل ، كما يقتل الشجعان الذين يهبون أنفسهم راضين لقبائلهم . ومايزالون يأخذون لها بأثارها وأوتارها ، منزلين بنحوصها أوتاراً وأثاراً مماثلة . وبذلك كانت حياة الجاهليين حلقات مفرغة من أوتار وأثار لا تنتهى ، فكلما وتر فرد من عشيرة شخصاً من عشيرة أخرى وسفك دمه سارعت عشيرته إلى أخذ وتره وثأره ، فالعشيرة دائماً واثرة وموترة ، وصور ذلك دريد بن الصِّمَّة أحد فرسان الجاهلية وأبطالها قائلاً :

وإنَّ لِلْحَمِّ السِّيفُ غَيْرُ نَكِيرَةٍ . وَنُلْحَمُهُ حِيناً وَلَيْسَ بِنَدَى نُكْرٍ

يُغَارُ عَلَيْنَا وَأَتْرِينَ فَيُشْتَفَىٰ بِنَا إِنْ أُصِيبْنَا أَوْ نُغِيرَ عَلَىٰ وَتِرٍ
 قَسْمِنَا بِذَلِكَ الدَّهْرِ شَطْرَيْنَ بَيْنَنَا فَمَا يَنْقُضِي إِلَّا وَنَحْنُ عَلَىٰ شَطْرٍ

وواضح أنه يرسم حياته وحياة عشيرته ، فهم دائماً لحم وطعام لسيوف
 أعدائهم ، وبالمثل أعداؤهم دائماً لحم وطعام لسيوفهم في غير شك ولا
 إنكار ، فتلك حياتهم ، لا يزال الفارس منهم يقاتل حتى يحاط به ،
 وحينئذ لا يلتقي السلاح ولا يستسلم ، بل يقاتل حتى يقتله الأعداء ،
 وحتى يشفوا غيظهم بدمائه المسفوحة في بعض معاركهم أو غاراتهم ،
 وكأنما أوقات دهرهم مقسومة قسمين : قسم لانتصارهم على أعدائهم
 وقسم لانتصار أعدائهم عليهم ، فداًئماً دق بالرماح في النحور ،
 وداًئماً طعن بالسيوف في الصدور ، وكأنما تحول الطعن والدق إلى سجية
 طبيعية من سجايهم ، بل لقد أصبحت غريزة جوهرية من غرائزهم .

ولعلمهم لم يكونوا يشعرون بيدَيْنِ إزاء آبائهم وأجدادهم كما كانوا
 يشعرون إزاء الأخذ بأثأرهم وتيراتهم ، فكان الابن إذا قتل أبوه أوجده
 وهو في المهد أو وهو صبي لم يدرك ارتسم الحقد والضغن على قاتله
 في سويداء قلبه ، حتى إذا شب عن الطوق وبلغ مبلغ الشباب عمد
 إلى تحريم كل زينة ومتاع على نفسه : فلا يتعطر ولا يشرب خمرًا ،
 لتلا ينسى ثأره ، بل لكى يعيش له ولا يشغله سواه ، وإنه ليحس كأنه
 وجد ليدرك ثأر أبيه أوجده ، ولينتقم له انتقاماً مروّعاً . وقد يكون في
 قصة قيس بن الخطيم شاعر المدينة في الجاهلية ما يصور ذلك تصويراً
 دقيقاً : فقد حدث الرواة أن رجلاً من بني عامر سكاك نجد قتل جدّه

وكان يسمى عدياً ، وأن أباه الخظيم قتله رجل من بني عبد القيس
سكان هجر قبل أن يثار لأبيه عدى ، فخشيت أم قيس على ابنها
وكان صبيهاً أن يطلب بثأر أبيه وجده ، فيهلك دون غايته ، فعمدت إلى
كومة من تراب عند باب دارها فوضعت عليها أحجاراً ، وجعلت تقول
لقيس : هذان قبرا أبيك وجدك ، فكان قيس لا يشك في ذلك ، وشب
قويماً شديد الساعدين ، فنازع يوماً فتى من فتيان قومه ، وخاف الفتى
على نفسه ، فقال له ليرده عنه : والله لو جعلت شدة ساعديك على
قاتل أبيك وجدك لكان خيراً لك ، فقال له : ومن قاتل أبى وجدى ؟
قال : سل أمك تخبرك : فثقل أمامها ، وأمسك بسيفه ، فوضع مقبضه
على الأرض وحده القاتل في صدره مائلا عليه ، وقال لها : أخبريني
من قتل أبى وجدى ؟ قالت له : ماتا كما يموت الناس ، وهذان
قبراهما بالفناء ، فقال لها : والله لئن لم تخبريني بمن قتلها لأتخاملن
على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ، فأخبرته بالحقيقة . فخرج
لتوه إلى بستانه ، فوجد بعيره يُسْتَقَسَى عليه الماء من بئر هناك ، والدلو
ممدوداً لأخذ الماء ، فضرب الحبل بسيفه فقطعه ، وسقطت الدلو في
البئر ، وأخذ برأس البعير ، فحمل عليه غرارتين من تمر ، وركبه
قائلاً : من يكفيني أمر أمى ، فإن مت أنفق عليها من هذا البستان
حتى تموت ثم يكون له ، وإن عشت فهو مالى عائد إلى ، وله منه أن
يأكل ما شاء من تمره . وتكفل له بذلك رجل من قومه ، ومضى تطويه
الأيام والشهور ، وهو يتحسس ويبحث ، حتى عرف القاتلين ،
وظل يلتمس غرة من كل منهما حتى أصابها وأدرك ثأره لأبويه ، وقرت

عينه واطمأنت نفسه ، وأنشأ يقول :

ثَارَتْ عُدِيَّاءُ وَالْحَظِيمُ قَلَمٌ أَضِيعُ وَلايَةَ أَسْمِيَاخٍ جُعِلَتْ إِزَاءَهَا

وهي قصيدة طويلة تصور مدى ما كان يضطرم في نفسه من غضب عنيف على قاتلي أبيه وجده ، وكيف كان يتحرق ويتلهف على لقاءهما كي يسفك دماءهما ويضع عن ظهره أعباء الثأر التي ألقت بكلاهما عليه ، وتهدأ نفسه وتستريح بعد طول العذاب وطول العناء .

ويحيل إلى الإنسان كأن كل عربي في الجاهلية كان قيس بن الخطيم ، فهو لا يقر له قرار ، إلا إذا أدرك ثأره ومحا عاره ، وكذلك كانت كل عربية ، ماتزال تصلى بنار الثأر ، وماتزال تندب البطل المقتول وتصيح ، وماتزال تنشد الأناشيد الحماسية صارخة من أعماقها في أبطال قبيلتها : هبوا للثأر واغسلوا عنا العار وما جلب لنا من الذل والهوان على نحو ما هو معروف عن رثاء الخنساء لأخويها صخر ومعاوية ، وهو ليس رثاء فقط بل هو أيضاً تجسيد لعظم المصائب فيهما حتى يحس قومها بما خسروا في البطلين وينكلوا بقاتليهما ويمزقوهم شرمزق .

وعلى نحو ما كانت سيوفهم مسالوة لحو عار الثأر والقعود عنه كانت مسالوة أيضاً لا تغمد دفاعاً عن الشرف والعرض ، ومن خير ما يصور ذلك قصة عمرو بن كلثوم سيد بني تغلب وبطلهم في الجاهلية مع عمرو ابن هند أمير الخيرة ، فقد قص الرواة أن هذا الأمير أرسل إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ، فأقبل عمرو في جماعة من تغلب ، ومعهم أمه ليلي بنت مهلهل . وأمر عمرو بن هند برواق ضُرب لعمرو وأمه وقومه فيما بين

الحيرة والفرات ، - وأرسل إلى وجوه أهل إمارته ، فحضروا . ودخل ابن كلثوم على ابن هند في رواقه ، ودخلت أمه على هند في جانب من الزواق ، فرحبت بها ، وكان يجوارها أطباق وطرف كثيرة ، ولم تلبث أن قالت لليلى : ناوليني يا ليلى ذلك الطبق مشيرة إليه ، فقالت لها ليلى : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعدت عليها وكررت وألحت . فصاحت ليلى : واذلاًه يالتغلب ! فسمعها ابنها ، فثار الدم في وجهه ، وكان بالرواق سيف معلق ، فوثب إليه ، وضرب به رأس ابن هند ضربة قاتلة ، ونادى في أمه ومن معه من قومه ، ولولوا وجوههم مسرعين نحو ديارهم ، وفي ذلك نظم معلقته النونية المشهورة يفتخر فيها فتحراً مسرفاً بقومه وأيامهم وانتصاراتهم في الحروب ، وهي مفعمة بالمبالغة في الفخر ووصف البلاء في الحرب ، وهي مفعمة أيضاً بروح عاتية كلها عتو وكلها تمرد . وهي تصور مدى ثورة الجاهليين حين تسول لشخص نفسه أن يمس شرفهم من قريب أو من بعيد ، فإلنهم يثورون ثورة لا حدود لها ، ثورة ترهق فيها النفوس ، وتفارق فيها الأجساد الرءوس . وكانت حماية النساء جزءاً لا يتجزأ من شرفهم وعرضهم ، ولعلمهم لذلك كانوا يصحبونهم معهم في الحروب ، حتى يلهبهم حمية في القتال ، وحتى يشعلنهم بأناشيدهن وإثاراتهن وتهبيجاتهن حماسة وبسالة ، وحتى يصمدوا من دونهن زياداً عنهن ، مهما استعمر أوار القتال ومهجا أنت على الرجال والأبطال ، وفي ذلك يقول ابن كلثوم في معلقته مفاخرأ بنساء قومه :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

أَخَذْنَ عَلَى بَعُولَتِهِنَّ عَهْدًا إِذَا لَاقُوا كِتَابَ مُؤَلِّمِينَا
 لِيَسْتَلْبِنَ أَفْرَاسًا وَبَيْضًا وَأَسْرَى فِي الْحَدِيدِ مَقْرَنِينَا
 يَقْتَنَ جِيَادِنَا وَيَقْتَنَ لِسْتَم بَعُولَتِنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا
 إِذَا لَمْ نَحْمِهِنَّ فَلَا حَيِينَا لَشَيْءٍ بَعْدَهُنَّ وَلَا بَقِينَا

فساؤهم الجميلات اللاتي شغفن قلوبهم حباً من ورائهم ، وأشد ما يخشونه أن تدور عليهم الدوائر في بعض الحروب فيقعن في أيدي الأعداء سبايا وغنائم ذليلات صاغرات . ويقول عمرو لإنهن أخذن على أزواجهن من الأبطال والشجعان عهداً ألا يبرحوا ساحة القتال إلا بعد تنكيلهم بالفرسان وإراقتهن دماءهم وحزهم رؤوسهم ، ومن بقى منهم جاءوا به مقرناً في الأغلال والقيود ، وكن يهدنهم إذا لم يذودوا عنهن ويحموهن بإنهن سيفارقهن فراق الأبد . ويقول عمرو إنه لا حياة لهم بدونهن ، وهم الدماء يثبون ثبوت الجبال الرواسي في حمايتهن والدفاع عنهن حتى لذلك الأخير .

وكانت قبائلهم تحمل جناية أى فرد منهم ، فبمجرد قتله شخصاً من قبيلة تصبح قبيلته شريكة معه في دمه ، واستقر ذلك في نفوس القبائل جميعاً ، بحيث لا تطلب القبيلة ثأرها من واتها وحده ، بل تطلبه من جميع قبيلته كلها وسرعان ما يتدافعون في حرب مييدة ، وقد تتسع الحرب ، فتتحالف القبيلتان المتحاربتان مع قبائل أخرى ، ونصبح إزاء حلفين كبيرين ، وتتوالى الوقائع . وكانوا يسمونها أياماً ، لأنهم كانوا يتحاربون نهراً حتى إذا دخل الليل أغمدوا السيوف إلى الصباح . وعادة

ينسبونها إلى البقاع والآبار والجبال التي تنشب بجوارها ، مثل يوم عين
أُباغ وكان بين المناذرة والغساسنة ، ويوم شعب جبلة وكان بين عبّس
وأحلافها من بنى عامر بن صعصعة وبين ذبيان وأحلافها من تميم ،
ويوم الرّحرحان بين قيس وتميم ، ويوم بزاحة بين ضبة وإياد ، ويوم
بعاث بين الأوس والخزرج في المدينة. وكانوا يغمدون سيوفهم في الأشهر
الحرم فلا يقتتلون ، إلا بعض مناوشات اشتركت فيها قريش وكنانة وهوازن
وبنو عامر وتسمى بأيام الفِجَار. وتعد أيامهم بالمئات حتى لقد بلغ بها
بعض المصنفين القدماء وهو أبو عبيدة ألفاً ومائتي يوم ، وكان لكل يوم
أبطاله وفرسانه المعلمون ، ومن أشهر أيامهم يوم ذى قار قبيل الإسلام ،
وهو اليوم الذي هزمت فيه قبيلة بكر بقيادة هانئ بن قبيصة الشيباني
جموع الفرس وجيوشهم ، وذوقار واد متاخم لسواد العراق ، ويسمى
هذا اليوم أيضاً يوم حِنُو قُرَاقِر وهو موضع بجنب ذى قار ، وهو أول
يوم انتصفت فيه العرب من العجم مما جعل الأعشى يصيح في وجوههم
بمثل قوله :

وَجُنْدٌ كَسْرَى غَدَاةَ الْحِنُو صَبَحَهُمْ
مَنَا غَطَارِيفَ تَرْجُو الْمَوْتَ فَانصَرَفُوا
لَمَّا أَمَالُوا إِلَى النَّشَابِ أَيْدِيَهُمْ
مَلْنَا بَبِيضٍ فَظَلَّ الْهَامُ يُقْتَتَفُ
وَحَيْلٌ بِكِرٍ فَمَا تَنْفَكُ تَطْحَنُهُمْ
حَتَّى تَوَلَّوْا وَكَادَ الْيَوْمُ يَنْتَصِفُ

لو أن كل معد كان شاركننا

في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف

والأعشى يشيد باستبسال قومه في الحرب وما أنزل فرسانهم على العجم من صواعق السيوف التي أطاحت برءوسهم ، وكأنما كانت قد أينعت وحن قفافها ، بل كأنما نصبت رحي كبيرة ، تطحنهم طحناً . ولم يكذ ينتصف النهار حتى ولوا الأدبار ، وبكر من ورأهم تدق رقابهم وتشق رءوسهم ، وحق للأعشى أن يعد ذلك اليوم شرفاً للعرب جميعاً من معد وغير معد ، فقد أدب لهم من الفرس وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من سحقهم سحقاً لا تقوم لهم قائمة من بعده .

ومن أشهر أيامهم فيما بينهم حرب البسوس التي استمرت أربعين عاماً بين بكر وتغلب وحرب دا حن والغبراء بين عبس وذبيان وبطلها غير مدافع بل ليشها المقدام عنتر بن شداد العبسي . كان أبوه من سادات عبس وشجعانها ، أما أمه فكانت جارية حبشية تسمى زبيبة وكان من تقاليد الجاهليين ألا يلحقوا أبناءهم من الجوارى والإماء بنسبهم إلا إذا شبوا وأبدوا شجاعة وبسالة فذة ، وإلا ظلوا عبيداً أذلاء . وكان أسود اللون ، فاجتمع عليه ذلان ، ذل الأم وذل اللون الذي ورثه عنها ، وأحس ذلك في أعماقه ، وكان قوى الجسم موثق الخلق ، فتدرب على الحرب والفرسية ، وأبوه وقومه غير آبهين له . وحدث أن أغارت بعض أحياء من العرب على حبيته ، فأصابوا منهم واستاقوا إبلهم ، وثار لقومه فكر عليهم ، وأبلى بلاء حسناً في حربهم واستنقذ الإبل ، وفرح به أبوه

وألحقه بنسبه ، ورد عليه حرите . وبذلك غسل ذل ولادته وذل لونه
وأصبح في عداد قبيلته الأحرار الأبطال . وكان يكنّ حباً لعبلة ابنة
عمه مالك ، فطلبها من أبيها ، وضمن عليه بها ، إما لسواده ، وإما لنسبه
من أمه ، وكان حبه لها قد ملأ عليه قلبه وعقله ، فحزّ في نفسه رفض عمه له ،
وظل مفتوناً بها هائماً أشد ما تكون الفتنة والهيام . واتفق أن كان الشعر
قد أخذ يتفجر على لسانه نبأ عذبا سائغاً شرابه ، فاتخذة أداة للتعبير
عن بطولته الحربية وحيه الظامئ لابنة عمه التي شغف بها وقتن يجمالها ،
وإنه ليعلن لإليها مراراً أنه إنما يقاتل ويستبسل في القتال من أجلها ، ودائماً
خيالها لا يبرح ذاكرته حتى في أخرج المواقف وأقسى الظروف ،
والرماح تأخذه وتعبث به من كل جانب ، على نحو ما يصور ذلك قوله :

ولقد ذكركِ والرماحُ نواهلُ

منى وببيضُ الهنْدِ تقطر من دمي

فوددتُ تقبيلَ السيوفِ لأَنها

لمعتُ كِبَارِقِ ثغركِ المتبسّمِ

وهي صورة من امتزاج الحب بالحماسة واختلاط نار الحرب بنسيم
الحب . وعلى نحو ما يقدم لصاحبته بطولته الحربية يقدم لها بطولته
النفسية والخلقية على شاكلة قوله لها في المعلقة :

أُننِي عَلَىٰ بِمَا عَلِمْتِ فَإِنِّي سَمَحٌ مَخَالِقْتِي إِذَا لَمْ أُظَلِّمْ

فَإِذَا ظَلَمْتِ فَإِنَّ ظُلْمِي بِأَسْلٌ مَرٌّ مَذَاقْتَهُ كَطَعْمِ الْعَلَقِمِ

وَإِذَا شَرِبْتِ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعَرَضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ

وإذا صحتُ فما أقصر عن ندى وكما علمتِ شمائلي وتكرمي
هلا سألتِ القوم يا ابنة مالك إن كنتِ جاهلة بما لم تعلمي
يعبرك من شهد الوقائع أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وهو يصور نفسه لعبة أبيضاً لا يقبل الضيم ولا الظلم بأي لون من ألوانه ، بل لا يطيقهما ، فإن ظلم أصبح كالبركان النائر ، يرد على الظلم بظلم مرير لا يبق ولا يذر ، وقد يشرب الخمر ولكنهما لا تفسد مروءته ولا بطولته الخلقية والنفسية ، فعرضه وشرفه دائماً مصونان محميان لا يستطيع أحد أن يمسهما بسوء ، وكأنهما غيلان لأسد هصور .
ودائماً يسارع إلى المكارم والحامد وكأنه الغيث كرمًا وجوداً ، ويتوجه لصاحبه بالخطاب أن تسأل عنه الفرسان والأقران ليحدثوها عن شمائله وشيمه الرفيعة ، وكيف أنه يقتحم المعارك ويصلي نارها مطيحاً برءوس الشجعان كأنه القضاء النازل ، حتى إذا أخذت كتيبته تجمع الغنائم والأسلاب كفت وأحجم ، عفة نفس عظيمة همها المسلوب وسفك دمه لا السلب والغنيمة ، فهو لا يجارب من أجل الغنائم وإنما يجارب من أجل المجد الحربي وشرفه الرفيع . وتكرر عند عترة الأبيات التي يصور فيها صلابة نفسه واعتداده بكرامته وبأنفته وعزته وترفعه عن الصغائر والمغريات وتعففه عن كل طعام خبيث ذق ذميم ، يقول :

لا تَسْقِنِي ماءَ الحياةِ بذلَّةٍ بل فاسقِنِي بالعزَّ كَأْسَ الحَنَظَلِ
ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظلَّهُ حتى أنالَ به كريم المأكَلِ

فهو يرفض ماء الحياة الممزوج بالذلل ، بل إنه يرفض الحياة كلها من أجله . أما العز فإنه سعادته في دنياه ، وهو يقبل عليه وعلى كؤوسه ولو كانت مترعة بنقيع الحنظل الذى لا يطاق . وهو يؤثر الطوى والجوع الشديد حتى الموت على الطعام الكريه الذى يزدريه أمثاله من أصحاب النفوس الأبية . وزراه يقف أمام المرأة نفس هذا الموقف الكريم ، وكان كثيراً ما يسبى النساء ، ويحدثنا أنه ما استام أو بعبارة أخرى ما راود سبية عن نفسها ، بل كان يدع لها حريتها لتقبله زوجاً أو ترفضه ، فإذا قبلته أدى إلى أهلها صداقها : كما يحدثنا أنه دائماً يغمض طرفه ويكف بصره عن جاراته حتى لا يؤذيهن بنظراته وتطفلاته ، يقول فى إباء وشمم :

ما استمتُّ أنثى نفسها في موطنٍ
حتى أوفى مهرها مولاها
وأغض طرفي ما بدت لي جارتي
حتى يوارى جارتى ماؤها
إني امرؤٌ سمحُ الخليفة ماجدُ
لا أتبع النفسَ اللجوجَ هواها

فنفسه لا تندفع في تحقيق مآربها الجسدية ، بل هو يكفها كفاً بل يفظمها عن هذا المآرب أو ذاك من المآرب التى قد يلتمسها صغار النفوس من حوله ، حتى تلك المآرب التى تتعلق بالمرأة . وناهيك بما

كانت تستشعره السبية من ذن ، وكأنما عاهد نفسه الكريمة أن يرد لها اعتبارها وكرامتها أولاً قبل أن يقربها وقبل أن تقبله زوجاً . أما امرأة جاره فإن وفاءه له جعله لا يمد عينه إليها . وإنه لمجد نفسه خلقى لا يقل روعة عن مجده الحربى . ومازال يكتب سطور هذا المجد بسنان سيفه وما سفك من دماء أقرانه حتى وافاه القدر قبيل البعثة بنحو سبع سنوات . وكان تجسيده في أشعاره لبطولة العرب في الجاهلية من جميع أقطارها الحربية والنفسية والخلقية سبباً في أن تنصبه العصور التالية تمثالاً للبطولة العربية وكأنه أصبح الناطق عن شعاراتها . ويدور الزمن دورات يخرج فيها العرب من جزيرتهم يفتحون مشارق الأرض ومغاربها ويبلون في فتوحهم بلاء عظيماً ، ويدخلون في معارك لا تكاد تنتهى منها معركة حتى تنشب أخرى مع الترك والفرس والبيزنطيين والروم ، وهم يقطعون سهرم في الليالى الطويلة بالحديث عن أبطالهم وخاصة عنبرة بطل الجاهلية ويتكاثر الحديث والقصص عن جبه لعبة ابنة عمه وعن حروبهِ وشأئله ، ويبالغ القصاص في تصوير بطولته حتى لتشوبها الأسطورة . ومايزال القصص عنها وعن صاحبها ينمو مع الزمن حتى يتجرد له أديب مصرى في العصر الفاطمى يسمى يوسف بن إسماعيل فيصنع منه قصة طريفة ألّفها في أجزاء صاغها من السجع والشعر ، وقطّع الحديث في نهاية كل جزء في تضاعيف وصفه لمعركة حامية الوطيس ، حتى يجذب القارئ لتابعة أحداث القصة في الجزء التالى . ومضت العصور التالية بعد عصر يوسف بن إسماعيل تضيف إلى القصة خوارق جديدة حتى اتخذت شكلها النهائى في القرن السابع الهجرى ، وهو شكل تحول

بها إلى أسطورة خيالية ، ليس للحقيقة فيها إلا ظل ضئيل ، فعنزة لايزال
 بطل عبس ، ولايزال ابن زبيبة البخارية السوداء ، ولايزال العاشق
 المفتون بعبلة ابنة عمه مالك ، ولايزال صاحب الأبحاد الحربية في الجزيرة
 العربية ، غير أن القصة لا تقف عند ذلك فإنها تجعله يشارك العرب
 في حروبهم مع الحبشة والفرس وبيزنطة والحروب الصليبية وروما
 والأندلس . وبذلك تصبح القصة تاريخ الأبحاد الحربية للعرب على مر
 العصور وكأنما تحولت إلى ملحمة تضم بطولتهم القديمة في الجاهلية
 وبتولاتهم التالية في الإسلام ، بل لكأنها إلباظة العرب التي أودعوا
 فيها مغامراتهم وبتولاتهم الحربية ، وعنزة فيها نبع لايزال سائلا بالبطولة
 في بلاده وغير بلاده ، بل لايزال يمدنا ببطولات خارقة تشعل الحماسة
 في نفس كل عربي .

في الإسلام

بعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام للعرب والناس أجمعين هادياً ونبياً كريماً مبشراً ونذيراً ، فلما أخذ يدعو قومه من قريش سخروا منه ، وقالوا كاهن أو ساحر أو مجنون . ومضى في دعوته ومضوا يضطهدونه هو ومن آمن به ، فنصح لبعض أتباعه بالهجرة إلى الحبشة حتى لا تفتنهم قريش عن دينهم الخفيف وتردّهم إلى عبادة الأوثان . وخرج الرسول إلى الطائف يدعو أهلها للإسلام لعلمهم يكونون أكثر قبولا لدعوته ، فردوه أسوأ رداً إذ أغروا به سفهاءهم فرجموه بالحجارة . ولما يئس منهم ومن قومه عرض نفسه في موسم الحج الجاهلي للكعبة على بعض الوافدين من أهل المدينة ، فأمنت به طائفة منهم ، وفي الموسم التالي آمنت طائفة أخرى أكثر عدداً بايعته على نصرته والدفاع عن حياض دعوته ، وألحوا عليه إلحاحاً شديداً أن يهاجر إليهم هو وأصحابه ليمنعوهم ، وليشاطروه في نشر رسالته والذيادة عنها بالسيف حين لا يكون مفر من حمله ، وعاهدوه على ذلك عهداً وثيقاً لا يمكن نقضه . ولما أمنت قريش في تعذيب من آمن بمحمد منها أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة قائلاً لهم : إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تآمنون فيها ، فخرجوا أرسالا ، وصممت قريش الباغية على قتل الرسول فهاجر مع أبي بكر الصديق مستخفياً ، وكان وصوله إلى المدينة يوم عيد لأهلها من الأوس

والخزرج ، وكانت الحرب مستعرة بينهما فألف بين قلوبهما ، وسُمّوا
 الأنصار ، وسُمّي الذين هاجروا من مكة باسم المهاجرين ، وآخى بينهما
 جميعاً . ولم تلبث الحروب أن نشبت بينه هو وأصحابه من أهل المدينة وبين
 قريش وتتابع الغزوات الكبرى في بدر وبنى أحد وانتهت بانتصار كلمة
 الله العليا على كلمة الكافرين السفلى وأعوانهم من اليهود أعداء الإسلام
 الذين كانوا يعملون سراً وجهراً على تقويض الدعوة المحمدية ناكثين
 عهد الرسول معهم وموثيقه .

ولم تكد تدخل السنة العاشرة للهجرة المقابلة لسنة ٦٣٢ للميلاد
 حتى أتم الله نوره على العرب ، فإذا قبائلهم جميعاً تعتنق الإسلام مؤمنة
 بتعاليمه العقيدية والعملية ، متحولة بذلك من قبائل وثنية متنازعة متخاصمة
 إلى أمة تتعاون على البر والخير والتقوى ، تؤمن بآله واحد يسيطر على
 الكون ويحيط علمه بكل ذراته ، وسعت رحمته كل شيء ، كما تؤمن
 برسله وكتبه واليوم الآخر وما يتصل به من بعث وعقاب وثواب وجحيم
 ونعيم . وتؤمن بأن وراء عالمنا المادى عالماً غيبياً يشتمل على نوعين من
 الأرواح الخيرة والشريرة هي الملائكة والشياطين . وتؤدى أعمالها
 وفروضاً دينية قوامها الصلاة والصيام والحج والزكاة . وتتحدى بتألية
 خلقية تقوم على نبذ الفواحش ما ظهر منها وما بطن ونبذ الخمر والقمار
 والبغى والعدوان والكبر والظلم ، واجتباب الأخلاق الذميمة مثل الغيبة
 والنميمة والعصية القبلية التي أشعلت بينهم في الجاهلية الإحن والأحقاد
 وأحالت حياتهم إلى ترات وأثار لا تنتهى . ولكي يقضى الإسلام على
 فكرة الأخذ بالثأر نقل حَقِّه من القبيلة إلى الدولة ، فلم يعد الثأر

يجز ثأراً في سلسلة من الحروب والمعارك الطاحنة بل أصبح عقاباً بالمثل وعلى قبيلة القاتل أن تقدمه لأولى الأمر حتى يلقى جزاءه . وأرسي الإسلام بجانب ذلك نظاماً اجتماعية واقتصادية جديدة للأمة العربية ، إذ حاول أن يقيم ضرباً من العدالة الاجتماعية في حياتها بفرضه على الموسر أن يرد بعض ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة ، فهو لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضاً لأمته وينبغي أن يتكافل مع أفرادها ويترايط معهم اجتماعياً واقتصادياً . وكانوا يحلون الربا فحرمه القرآن الكريم ، كما حرم التلاعب في البيع ، وشرع توريث المرأة وجعل لها حق التصرف في أموالها ، ودعا دعوة واسعة إلى تحرير الرقيق .

وعلى هذا النحو رسم الإسلام للعرب مثلاً علياً جديدة في التشريع والنظم الاجتماعية والاقتصادية وفي العقيدة وشئون العبادة وفي السلوك والقيم الخلقية وما يتصل بها من الفضائل ، ففضيلة الكرم التي كان يببالغ فيها الجاهليون طلب فيها الاعتدال وألا تسقط بين التفريط والإفراط ، يقول جل شأنه : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) بل لقد وجه الكرم إلى خدمة المجتمع الجديد مجتمع الأمة ، بحيث ينفق الموسر على المعسر ، وسمى ذلك قرصاً لله وعدّه حقاً مفروضاً إذ يقول : (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . وكان قد جعلهم حب الانتقام والأخذ بالثأر ، يعدون الصفيح والنفو رذيلة ، فعدّها فضيلة وحث عليهما وعلى كظم الغيظ بمثل قوله : (وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله

يجب المحسنين) . وكلها تعاليم تخالف ما كان عليه العرب في الجاهلية ، وقد كونت منهم أمة يسودها الخير والعدالة ، ويجب كل فرد فيها لأخيه ما يحبه لنفسه : ويتعاون معه في كل صغيرة وكبيرة من شؤون حياته ودينه .

ولم تجتمع هذه الأمة حول الدين الجديد بالحكمة والموعظة الحسنة وحدهما ، بل لقد اضطّر الرسول في مقامه بالمدينة إلى أن ينازل مشركي قريش والعرب حتى يهدم طواغيت الوثنية العاتية . وطال النزال ونشبت معارك كثيرة ، انتصرت فيها بطولة الدين الحنيف على بطولة الوثنية والعصبية وما يتبعها من الأخذ بالثأر ومحبة الانتقام . وبون بعيد بين بطولة لا باعث لها سوى التخلص من عار القعود عن طلب الثأر وعن الصريخ والاستغاثة ، وبطولة باعثها الجهاد في سبيل الله وسبيل نشر دينه العظيم ، وهو جهاد يفتح للمستشهردين فيه أبواب جنات النعيم على مصاريعها وأبواب رحمته ومحبته ورضوانه . وتكثر في القرآن الآيات الكريمة التي تحض على الجهاد وبذل المهج والأرواح والأموال وكل نفيس غال في سبيل إعلاء كلمة الله من مثل قوله تبارك وتعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) : وقوله : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) ، وقوله : (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) وقوله : (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم) ، وقوله : (انفسروا خيفاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم

خير لكم إن كنتم تعلمون) وقوله : (وفضل الله المجاهدين على القاعدين
أجراً عظيماً) ، وقوله عز شأنه : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن
رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) . ويقرن القرآن الجهاد كثيراً
بالصبر والثبات واجتماع الكلمة من مثل قوله جل وعز : (إن يكن منكم
عشرون صابرون يغلبوا مائتين) ، وقوله : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم
قوة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) وقوله : (وأطيعوا الله ورسوله
ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) .
وكان الرسول عليه السلام لا يزال يحرض على الجهاد في سبيل الله صادعاً
بأمر ربه في مثل قوله تعالى : (يا أيها النبي حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)
وهو تارة يخطب في جنده وتارة يحدثهم أحاديثه النبوية على شاكلة
قوله : « من قُتِلَ مجاهداً أو مات مرابطاً فحرام على الأرض أن تأكل
لحمه ودمه ، ولم يخرج من الدنيا حتى يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ،
وحتى يرى مقعده من الجنة » ، وقوله : « في كل أمة رهبانية ، ورهبانية
أمتي الجهاد » ، وقوله : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في
أنف مسلم » ، وقوله عن ربه سبحانه : « من خرج مجاهداً في سبيل ابتغاء
مرضاتي فأنا عليه ضامن أو هو عليّ ضامن ، إن قبضته أدخلته الجنة
وإن رجعت رجعت بما أصاب من أجر أو غنيمة » ، وقوله : « لرباط
يوم خير من صيام شهر وقيامه (بالصلاة ليلاً) » .

وقد أحالت هذه الأحاديث وما يماثلها من كلام الرسول عليه السلام
ومن آي الذكر الحكيم الصحابة إلى أبطال خلقوا للجهاد في سبيل الله ،
أبطال لا يخشون الموت ولا يرهبون ، بل إنه يمشی في ركبهم لينزلوه

صواعق على أعداء الله ورسوله ودينه الذين استحلوا إلى كباش تنتظر الذبيح ، فلا يلتقون معهم حتى تسيل دماؤهم أنهاراً ، وكأنما اخترع الدين الخفيف أبطاله اختراعاً . بل إنه الإيمان وما ينتظره أصحاب الرسول من الثواب والنعيم الأخرى الدائم هو الذى أحال كل فرد فيهم إلى أسد يزار ويزجر ويفتك بالكفار فتكاً ذريعاً . وكأنما أصبحوا رموزاً لبطولات سماوية تصارع بطولات أرضية ، مما جعل حروبهم كلها ظفراً وانتصاراً مؤزراً . ولكى تتضح لنا روح هؤلاء الأبطال الجدد يحسن أن نقف قليلاً بإزاء ما كان من حوار بين الرسول وأصحابه من المهاجرين والأنصار قبل وقعة بدر الكبرى ، فإنه لما علم بمسير قريش لقتاله جمع أصحابه واستشارهم هل يقدم على حرب قريش ونزالها أو يحجم ؟ فقام المقداد أحد المهاجرين فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله (من قتال المشركين) فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لنكونن من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك أو يفتح الله لك بالنصر المبين . فقال له رسول الله خيراً ودعا له بخير . وأقبل على الأنصار يريد أن يعرف ما عندهم قائلاً : أشيروا على أيها الناس ، فقال له سعد بن معاذ الأنصارى : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . قال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا

هذا البحر (الأحمر) فخصته لخصناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبرٌ عند الحرب، صدقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فانهض بنا على بركة الله . وسرَّ الرسول بقوله ، وتوجه إلى القوم فقال لهم : سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم . وسار مع جنده من المهاجرين والأنصار حتى نزل بماء بدر ، وأقبلت قريش بصناديدها ورجالها في جيش كثيف يبلغ أضعاف جيش المسلمين ، والتقت الفئتان ، ودنا أفرادهما بعضهم من بعض ، ونهض رسول الله إلى أصحابه يحرصهم ويحثهم ويستنهضهم قائلاً : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، فقال عمير بن الحمام الأنصاري وفي يده تمرات يأكلهن : بَخِ بَخِ ! (عجباً عجباً) فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ثم ألقى التمرات من يده وأخذ سيفه ، فقاتل القوم فاعلا بهم الأفاعيل حتى قُتل وهو يقول :

رَكُضاً إِلَى اللَّهِ بغيرِ زَادٍ إِلَّا التُّقَى وَعَمَلِ المَعَادِ
وَالصَّبْرِ فِي اللَّهِ عَلَى الجِهَادِ وَكُلُّ زَادٍ عُرْضَةٌ النَّفَادِ
غَيْرُ التُّقَى وَالبِرِّ وَالرِّشَادِ

وهجم أصحاب رسول الله على الفئة الضخمة الباغية يقتلونهم ويحتزون رءوسهم ويأسرونهم ، حتى ولوا الأدبار وهم صاغرون . وقد خلفوا من رؤسهم مائة وأربعين من ساداتهم وأبطالهم بين أسير وقتيل ،

غير الأنفال والغنائم الكثيرة التي أفاءها الله على المسلمين . ومضت
فلول قريش تنن من هول المعركة ، وارتفع الصباح والوعيل والنحيب
في كل دار ، وأجمعت قريش أن تعود لحرب محمد وأصحابه ، وما زالت
تعدّ لذلك حتى خرجت ومعها النساء ينشدن الأناشيد الحربية ، ونزلت
بجوار «أحد» قرب المدينة ، ولقيها الرسول وأصحابه ، وأبلى على بن أبي
طالب وحمزة وأبو دجانة بلاء حسناً وقاتل الصحابة قتالا شديداً ببصائر
ثابتة ، فانهزمت قريش ، وتركت الرماة مواقعها ، فكبر المشركون :
وقتلوا طائفة من المسلمين بينهم حمزة بن عبد المطلب ، وصبر الرسول
على الرغم من جراحة أصابت وجهه الكريم ، صبر مع صحابته حتى
انقضت الغمرة ، وفي تلك الغزوة كان على يطلها ينشد :

لعمري لقد قاتلت في حُبِّ أحمدٍ
وطاعة ربِّ بالعباد رحيم-
وسيفي بكفِّي كالشهاب أهزه
أجدُّ به من عاتقٍ وصميم
فما زلت حتى فضُّ ربِّي جموعهم
وحتي شفينا نفس كلِّ حلِيم

ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن ابن أبي طالب كان البطل المعلم الذي
ترتجف عند سماع اسمه أبطال الكفار والمشركين . ومن صور بطولته
المجيدة أن عمرو بن عبد ودّ أحد صنائيد قريش خرج في غزوة الخندق

يطلب التزال وقد ركب فرساً له ، فخرج له على وقال له : يا عمرو ، إنك كنت تعاهد الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى خكستين إلا أخذت منه إحداهما قال : أجل ، قال على له : فإني أدعوك إلى الله عز وجل وإلى رسوله والإسلام قال : لا حاجة لي بذلك قال : فإني أدعوك إلى التزال ، قال عمرو : ولم يا بن أخي فإني والله ما أحب أن أقتلك؟ قال على : ولكني والله أحب أن أقتلك : فحسى عمرو عند ذلك ونزل عن فرسه وضرب وجهه ، ثم سار نحو ابن أبي طالب ، فتنازلا وتصارعا صراعاً شديداً ، وثار الغبار بينهما حتى حال دونهما ، فلما انجلى عنهما شوهده على وهو على صدر عمرو يحتر رأسه ، ثم وقف وهو يصيح بعمرو وانتصاره للأوثان والأنصاب التي كانوا يقصدونها ويدبجون لها القرايين ، كما يصيح بالأحزاب الذين تجمعوا مع قريش لقتال الرسول وأصحابه :

نَصَرَ الْحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ وَنَصَرْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ بِضِرَابِ
لَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ خَاذِلَ دِينِهِ وَنَبِيِّهِ يَا مَعْشَرَ الْأَحْزَابِ

وفي كل غزوة نلتقى بعلى وبطولته الحارقة وهو يطيح برءوس المشركين والكافرين وكأنه يطلب الاستشهاد والقتل ليفوز بالحسينين : رضوان ربه ونعيمه ، وحققت فيه كلمة العرب التي توارثوها من قديم : اطلب الموت توهب لك الحياة ، فكان يكنى أن يلمع أمام منازله سيفه ذو الفقار فإذا رأسه قد فارق جسده إلى غير مأب ، وبمحق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيفه وفيه : « لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على » .

ولما فرغ الرسول من عمرة القضاء وعاد إلى المدينة بعث جيشاً مكوناً من ثلاثة آلاف لحرب الروم في الشام ، وجعل قيادته لزيد بن حارثة ، ثم قال : إن أصيب زيد فالقيادة بلعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب خلفه عبد الله بن رواحة . ومضوا حتى نزلوا معان جنوبي الأردن ، فبلغهم أن هرقل إمبراطور بيزنطة نزل مدينة مآب من أرض البلقاء (عمّان) في مائة ألف من الروم وانضم إليه مائة ألف من عرب الشام . فلما بلغ ذلك زيدا وأصحابه أقاموا في معان يومين ينظرون في أمرهم ، وقال نفر : نكتب إلى رسول الله ونخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا برجال ، وإما أن يأمرنا بأمر فنمضي له ، ووقف عبد الله بن رواحة ونادى في الناس قائلاً : يا قوم والله إن الذي تكروهون للذي خرجتم تطلبونه وقد أدركتموه ، يريد الاستشهاد في سبيل الله . ثم قال : وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا إلى لقاء القوم ، وإنما هي إحدى الحسينين : إما انتصار ، وإما استشهاد ، فقال الناس : صدق ابن رواحة ، وزحفوا إلى العدو ، وقد امتلأوا حماسة وحمية ، وكل منهم يود لو لقي مصرعه حتى تكتب له الشهادة ، وابن رواحة يمرضهم ويحثمهم منشداً :

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فرغٍ تقذف الزبدًا
أوطعنة بيدي حرّانَ مجهزةً بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدتي أرشدك الله من غازٍ وقد رشدا

وواضح أنه يتمنى لنفسه الشهادة بضربة ذات فرغ أو سعة .

تقذف الدم الطاهر ، أو طعنة بيدي عطشان للدماء تجهز عليه بحربة تنفذ إلى الأحشاء والكبد نفوذاً مميّناً ، حتى يذكر المسلمون من بعده بلاءه في الله ودينه . وكأنما استجاب الرحمن دعاءه وسؤاله ، فقد مضت الفئة القليلة ، حتى إذا كانت بمؤتة إحدى القرى القريبة من مدينة الكرك الحالية بالأردن لقيت جيوش الأعداء ، والتحم القتال ، وترامى المسلمون على حياض الموت ، وقاتل قائدهم زيد بن حارثة ويده اللواء قتالا مستميتاً حتى قُتل ، وقذف باللواء إلى جعفر بن أبي طالب ، فعقر فرسه ، وقاتل حتى قُطعت يمينه ، فأخذ اللواء بيساره فقُطعت فاحتضنه ، وقد غرق في الدم ، وروحه تفيض وهو ينشد :

يا حَبْدًا الجِنَّةُ واقترباها طيبةً وبارداً شرابها
 وحمل منه اللواء عبد الله بن رواحة ، واقتحم القوم على فرسه ، يقتلهم ويسفك دماءهم ذات اليمين وذات الشمال وهو يستثير نفسه ويمسها ويدفعها دفعاً إلى الضراب والطعان ، حتى تحقق له ما ظل يصبو إليه من الاستشهاد في سبيل الله ، وكان لا يزال يهبجها بمثل

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ طَائِعَةً أَوْ فَلَتُكْرَهِنَّ
 قَدْ أَجْلَبَ النَّاسَ وَشَدُّوا الرِّنَّةَ مَالِي أَرَأَيْكَ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةَ
 قَدْ طَالَمَا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً

وقوله :

يا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمَوِّيَ هَذَا حِمَامِ الْمَوْتِ قَدْ لَقَيْتِ

وما تمنيت فقد أعطيت وإن تأخرت فقد شقيت وانتهى اللواء إلى خالد بن الوليد ، فرأى من الحكمة أن ينصرف بمن معه عن الحرب ، فأنحاز بهم وعاد إلى المدينة . وكان ما أظهرت هذه الجماعة القليلة من البسالة هي التي جعلت الروم فيما بعد كلما التقوا بالمسلمين في عصر الفتوح ألقوا إليهم عن يد وهم صاغرون .

ولم يصور الأبطال وحدهم بطولتهم في غزوات الرسول ، فقد كان يشركهم في تصويرها الشعراء من حوطم . ولعل شاعراً لم يشهر بذلك كما اشهر حسان بن ثابت شاعر الأنصار ، ويقال إنه لم يشهد مع الرسول غزوة لعله كانت قد أصابته ، وهو إن لم يشهر معه سيفه عن عجز ، فقد شهر معه لسانه على قریش وخصومه ولم تنشب معركة أبلى فيها المسلمون إلا وقف عندها طويلاً يسجل بلاءهم وجهادهم المستميت .

وانتصرت أخيراً وبعد كفاح شديد بطولة هؤلاء المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لربهم ودينهم ، وعمت أضواء الدين الحنيف الجزيرة العربية ، وكان الرسول قد أعد جيشاً لحرب الروم ، وأصابه الإخفاق في مؤتة كما مر بنا آنفاً فرأى أن يعد جيشاً جديداً ، وذكر الرواة أنه أرسل رسلاً إلى الملوك ومن بينهم ملك الروم وملك فارس يدعوهم إلى الإسلام ، ويحملهم تبعة أقوامهم ، فرد ملك الروم في لطف ورد ملك الفرس في عنف . ولما انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى رأى أبو بكر خليفته أن ينفذ فكرته في دعوته بملكي الفرس والروم إلى الإسلام ونشره بين أقوامهم إن لم يكن بالسلم قبالسيف وحز الرقاب . وخرجت الجيوش شرقاً وشمالاً ، ففتح العراق وفتحت فارس ، وفتح الشام وفتحت مصر ، ثم فتح الشمال

الإفريقي وفتحت الأندلس ، وفتحت السند وبخارى وسمرقند . وأهم سبب في قبول هذه البلدان الحكم العربي حيثئذ ما رسمه الإسلام للبلدان المفتوحة والأمم المغلوبة من المعاملة الحسنة ، على نحو ما يصور ذلك عهد الرسول عليه السلام لنصارى نجران فقد أمر أن لا تُمس كنائسهم وأن تترك لهم الحرية كاملة في ممارسة عباداتهم ، وأوجب ألا يُقتل شيخ ولا طفل ولا امرأة . وعن هذه المعاملة المنصفة صدر أبو بكر وعمر وعثمان في وصاياهم لأمراء الجيوش الفاتحة ، وكانوا حين يودعونهم يخطبون فيهم حاضين على الجهاد في سبيل الله ونشر دينه الخفيف في أقطار الأرض ، وأن يرعوا في معاملة الشعوب المفتوحة ربهم . وكان أبو بكر يطلب إليهم دائماً ألا ينجونوا ولا يغدروا ولا يمشلوا بقتيل ولا يقتلوا شيخاً كبيراً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلوا مالا إلا ما يحتاجون إليه لطعامهم ولا يتعرضوا لرهبان النصارى بشيء يؤذيهم . واقتدى به عمر بن الخطاب ، فكان يبحث على الجهاد حتى تملو كلمة الله ويتشر دينه في الأرض ، كما كان يبحث على حسن المعاملة للأمم الأجنبية وأن يتزه العرب أنفسهم عن عرض الدنيا . وبالمثل كان يصنع عثمان .

ولكن هذه الشعوب والبلدان التي سميها لم تدعن للعرب إلا بعد خطوط حربية شديدة وبعد أحداث عسكرية جسام ، فقد ظلت تقاوم حتى قهرتها البطولة العربية واضطرتها إلى الإذعان والاستسلام ، وهي مقاومة حولتها إلى ساحات حربية كبيرة ، كان النصر فيها دائماً حليف العرب لصبرهم في القتال وصدقهم في النزاع ، ولأنهم كانوا يطلبون

الاستشهاد ، حتى يدخلوا الجنة من أوسع أبوابها . وكانوا كلما فتحوا بلداً أو انتصروا في معركة اشتدت بهم حماسهم فطلبوا معركة جديدة مؤمنين بأن الجنة تحت ظلال السيوف . وكان لا يزال قوادهم بخطوبهم مستثيرين حميتهم لدينهم ، وكان يقوم فيهم وعاظ كثيرون يزهدونهم في الدنيا ومتاعها الزائل ، ويرغبونهم في طلب ما وعد الله به المجاهدين من النعيم الدائم ، مما جعلهم يحرصون على الموت أكثر من حرصهم على الحياة . ويخيل إلى الإنسان أن كل عربي في الجزيرة أحسن في عمق أن واجبه الأول إزاء ربه لا أن يصلى ويؤدى فروض دينه فحسب ، بل أيضاً أن يتتظم في صهوف المجاهدين في سبيل الله وأن يتخذ كل وسيلة لكي يظهر اسمه في لوحات الشرف ، لوحات الاستشهاد والفوز برضوان الله وقد وضع كل منهم شعاراً نصب عينيه : (ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) . وهو يناضل في سبيل هذا الشعار قرى إلى الله وزلفى لحنانه ، وأخذت سيول الجيوش الفاتحة تتدفق على العراق والشام ، وأخذت البطولة العربية تتجلى في أعظم معارضها ومشاهدها ، في الرجال والنساء اللاتي كن يشهدن المعارك محرضات محمسات ، بينما كان الأبطال يدوون كالنحل بأشعار الحماسة . ولن نستطيع أن نعرض لهذه المعارك وبطولاتها بالتفصيل في هذا الكتاب الجميل ، ومن أجل ذلك نكتفي بالوقوف عند معركة كبيرة واحدة هي معركة القادسية بالقرب من الكوفة التي فُتحت بعدها للعرب أبواب فارس ، وكان سعد بن أبي وقاص الصحابي الجليل يقود الجيش العربي ، وكان رسم بطل الفرس

وقائدهم الفذ يقود جيشهم الضخم الذى أرادوا به أن يقفوا السيل العربى ويجولوا بينه وبين الانبساط والامتداد . وصمم العرب على أن يحتاجوهم حتى تشيع بينهم شريعة الإسلام ، وحتى يهبطوهم لأداء واجبهم الإنسانى العظيم ، وكان ذلك كان موثقاً بين الله وبين العرب رجالهم ونسأهم ، ومن أروع الأمثلة التى تصور هذا الموثق صنيع الحنساء فى ليلة القادسية وكانت قد هاجرت إليها مع أولادها الأربعة لتشهد جهادهم فى الفتوح وقد حطمها السن ، وكانت قد اشتهرت فى الجاهلية بيكائها على أخويها

صخر ومعاوية ، وظلت تلبس الحداد عليهما سنوات طويلاً ودمعها لا يرقأ ولا يجف ، ودخلت فى الإسلام وحسن إسلامها ، حتى إذا كانت خلافة عمر احتسبت أفلاد كبتها الأربعة للجهاد ، وخرجت معهم إلى القادسية ، وسعد مفسكر بجيشه ينتظر فى الغد الموقعة الفاصلة ، فتوجهت إلى أبنائها توصيهم وتدلح الحمية لدينهم فى قلوبهم ، قائلة : « يا بنى اإنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد وامرأة واحدة ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعالمكم تفلحون) ، فإذا أصبحتم غداً سالمين فاغدوا إلى عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين : فإذا رأيتم الحرب قد شتمت عن ساقها .. فيمسموا (فاقصدا) وطيسها تظفروا بالغم والكرامة فى دار الخلد والمقامة » . وما كادت الحنساء تستتم كلامها حتى عاهد كل ولد من أولادها نفسه وربيه أن يبادر إلى الحرب

حين يسمع نفيها . وبادروا مبكرين ، وحمل أولم ، وهو ينشد :
يا إخوتى إن العجوز الناصحه قد نصحتنا إذ دعتنا البارحه
مقالة ذات بيانٍ واضحه فباكروا الحرب الضرروس الكالعه
وأنتمُ بين حياةٍ صالحه أو ميتة تورث غنماً رابحه
وكانه يشير في الشطر الأخير إلى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا
هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون
في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) وكُتب له أن يصيب ما كان يصيبو
إليه من تجارة وريح كبير ، فقد ظل يقاتل حتى قتل شهيداً . وحمل
أخوه من ورائه وهو يهتف :

إن العجوز ذات حزم وجلّد والنظر الأوفى والرأى السدّد
فباكروا الحرب حماة في العُدّد إما الفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عزّ الأبد في جنة الفردوس والعيش الرغد

وهو يصف جنة الفردوس التي أعدت للمجاهدين بما جاء في نعمها
من قوله جل شأنه في خطابه لآدم : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك
الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما) ، ومضى يطلب عيشها الرغد ويقاتل
في لطفة على الاستشهاد حتى قتل . وحمل حملتها أخوها الثالث وهو
يلوح بسيفه في وجوه الفرس منشداً :

والله لا نعصى العجوز حرقاً قد أمرتنا حذباً وعظفاً
نصحاً وبراً صادقاً ولطفاً فبادروا الحرب الضرروس زحفاً

ولعله يشير إلى الآية الكريمة : (إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار) . وما زال يقاتل الفرس مقدماً غير محجم ومقبلاً غير مدبر حتى مات ميتة الأبرار . ويحمل أخوهم الرابع ، وهو يرتجز أبياتاً من مثل قوله :

إِما لِفُوزِ عَاجِلٍ وَمَغْنَمٍ أَوْ لِفُؤَاةٍ فِي السَّبِيلِ الْأَكْرَمِ
وَإِخْتَارَهُ اللهُ لِجِوَارِهِ ، فَلَحِقَ بِإِخْوَتِهِ . وَتَلَقَّتِ الْخِنْسَاءُ خَبْرَ مَقْتَلِهِمْ ،
وَكَأَنَّمَا كَانَتْ فِي انْتِظَارِهِ ، فَلَمْ تَنْحَ عَلَيْهِمْ نَوَاحِيهَا عَلَى إِخْوِيهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ
وَالصَّاحِتِ وَلَا أَعُولَتْ ، بَلْ لَكَأَنَّمَا فَرِحَتْ لَهُمْ وَاسْتَبَشَّرَتْ ، وَإِذَا
هِيَ تَقُولُ لِمَنْ أَبْلَغُوها نَعِيمِهِمْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَّفَنِي بِمَقْتَلِهِمْ فِي مَعَارِكِ
الْجِهَادِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَرْجُو مِنْهُ أَنْ يَجْمَعَنِي بِهِمْ فِي مَسْتَقَرِّ رَحْمَتِهِ .

وحمي وطيس المعركة ، وخطب أمير كل فرقة من فرق الجيش العربي أصحابه وحضهم على الصبر في الجهاد وأن يكونوا كأسود الغاب وأن يسارعوا إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمجاهدين . وتواتق الجند العربي وتعاهدوا للمعركة الفاصلة ، وأخذ القائد العظيم سعد بن أبي وقاص يستثير أهل النجدة من أمثال عمرو بن معديكرب ، وقيس بن مكشوح المرادي ، وعروة بن زيد الخليل ، وبشر بن ربيعة الخثعمي والشعراء من أمثال الشماخ ، وعبد بن الطيب ، وربيع بن مقرم الضبي ، وعمرو بن شأس الأسدي ، قائلًا : قوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس ، فذكروهم وحرصوهم على القتال . وأمر سعد القراء أن يقرءوا سورة الجهاد والفتح في كل كتيبة ، فاطمأنت قلوب الناس وأقبلوا في حماسة



على الجهاد ، وكبّر سعد ثلاث تكبيرات ، وبرز أهل النجدات والبطولة
والبأس فأنشبو القتال .

وأخذ الجيش الفارسي الضخم يتهاوى تحت أقدام البطولة العربية ،
وسالت دماء الأعاجم أنهاراً ، وأنزل الله نصره على المجاهدين في سبيله
بعد أن زلزلوا زلزالا شديداً ، فإذا الأعاجم يولون الأدبار بعد أن تركوا
وراءهم ثلاثين ألف قتيل غير آلاف الأسرى وما خلفوا في معسكرهم من
سلاح ومثونة وأداة وعدة . وبلغ من فزعهم ورعبهم أن كان المجاهد
يدعو الرجل منهم فيأتيه حتى يقف بين يديه فيضرب عنقه ، وحتى إنه
ليأخذ منه سلاحه فيقتله به ، وحتى إنه ليأمر الأعجميين أن يقتل أحدهما
صاحبه فيصدعان بالأمر رهبة ورعباً . وفخر فرسان العرب وأبطالهم
بما أبلوا في هذا النصر فخرأ طويلاً من مثل قول بشر بن ربيعة الخنعمي :

تَذَكَّرْ هَذَاكَ اللَّهُ وَقَعَ سِوْفُنَا بِيَابِ قُدَيْسٍ وَالْمَكْرُ عَيْسِرٌ
عَشِيَّةً وَدَّ الْقَوْمُ لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ يُعَارِ جَنَاحِي طَائِرٍ فَيَطِيرُ
إِذَا مَا فَرَعْنَا مِنْ قِرَاعِ كَتِيْبَةٍ دَلَفْنَا لِأُخْرَى كَالْجِبَالِ تَسِيرُ
وَقُتِلَ رَسَمَ قَائِدِ الْفِرْسِ فِي الْمَعْرَكَةِ ، وَتَنَازَعَ شَرَفَ قَتْلِهِ كَثِيرُونَ ،
ويظهر أن رماحاً كثيرة سقطت عليه حين ضربه قيس بن مكشوح المرادي
بسيفه ، فشق رأسه وخرصريراً يترنج في دمه . مما جعل غير بطل ينسب
هذا الشرف إلى نفسه في شعره ، وقد سجله قيس لنفسه بمثل قوله :

وَمَا أَنْ رَأَيْتِ الْخَيْلَ جَالَتْ قَصَدْتُ لِمَوْقِفِ الْمَلِكِ الْهَمَامِ
فَأَضْرَبَ رَأْسَهُ فَهَوَى صَرِيْعاً بِسَيْفٍ لَا أَفْلَّ وَلَا كَهَامِ

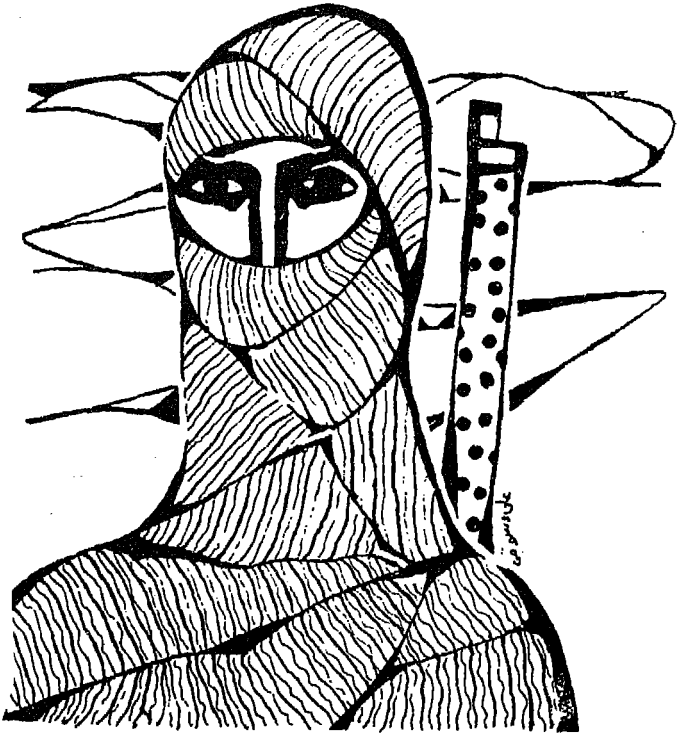
وكانت الجزيرة كلها قد تعلق فؤادها بهذه المعركة ، لما كانت ترى فيها من مصيرها ، فلما ينتصر العرب على الفرس إلى الأبد ، وإما يهزمون - لا قدر الله - إلى الأبد . وكانت لاتزال تتسقط أخبارها تريد أن تعرف ما سيكون من أمرها، حتى كان الرجل يعرض عليه أمر، فيقول لا أنظر فيه حتى أرى ما يكون من أمر القادسية . فلما جاءهم النصر العظيم وزفت إليهم بشره أخذوا يتغنون به رجالا ونساء وكل قبيلة تتغنى ببلاء أبنائها ، تتغنى النخع وغيرها من القبائل اليمنية ، وتميم وغيرها من القبائل المضرية . من ذلك أن امرأة سمعها الناس ليلا على جبل بصنعاء في اليمن ، وهى تتغنى بأبيات تشيد ببطولة قومها النخع في القادسية ، وفيها تقول على لسان أحدهم

فحيثك غنى أعصبة نخعية حسان الوجوه آمنوا بمحمد
أقاموا لكسرى يضربون جنوده بكل رقيق الشفرتين مهند

وتطابرت في عامة بلاد الجزيرة أغان على هذه الشاكلة تمجد شجاعة المجاهدين وتشيد ببسالتهم واقتحامهم أهوال الحرب في غير خوف ولا وجل ، بل في إقدام لا يفوقه إقدام . ويلحق بهم القاعدون ، كل يريد أن يشارك في شرف الجهاد . ويمضى الجيش العربى بعد القادسية ميمماً إيران ، ويحطم كل مقاومة تلقاه في جلولاء وفي نهاوند وفيما وراءهما من بلدان حتى خراسان ، ويتغنى المجاهدون بانتصاراتهم وبما أنزلوه بالأعاجم من تقتيل ساحق وهزائم منكرة، وما كشفوه عن كتابهم من خطوب ومكاره ومتالف مروعة .

وبهذه الروح الغالبة التي لا تقاوم انتصر العرب على الفرس وقوضوا دولتهم في بلادهم ، كما انتصروا على الروم في الشام ومصر وشمال إفريقيا؛ وكل هذه الفتوح كلفت الجيوش العربية خطوباً شداداً وأهوالاً من المعارك والقتال والصراع والنزال ، وفي كل معركة وكل فتح تتجلى بطولتهم وتتجلى أمجادهم الحربية ، ويتجلى معها ما نظموه من أناشيد حماسية .

وكأنما أريد لهذا السيل الطامى الذي غمر الفجاج والشعاب من أواسط آسيا إلى مصر وشمال إفريقيا أن يتوقف فجأة وعلى غير انتظار فشبت فتنة عمان التي انتهت بمقتله ، وبإيع أهل المدينة على بن أبي طالب وتطورت الأمور ونشبت الحرب بين علي وخصومه في صفين وانتهت بقبوله التحكيم ، وثار عليه فريق من جيشه لهذا القبول كأنه لا يعرف أنه على حق ، وهم نواة القرقة المعروفة باسم الخوارج ، وحاربهم وقتلوه غيلة . وانتهت مقاليد الخلافة إلى معاوية ، فجمع الناس ، وأخذ بحكمته يحاول أن يزيل من بينهم نار العداوة والبغضاء التي أوججتها حروب صفين ، وخذت النار في الظاهر ، وظل جمر كثير مستتراً وراء الرماد ، وهو جمر أعدت لظهور أحزاب متعددة فإذا الحجاز والقبائل القيسية تلتفت حول عبد الله بن الزبير مما أتاح للحزب الزبيرى أن يتكون ، وتكون حزب التف حول البيت الهاشمى هو حزب الشيعة الذى كان يتخذ الكوفة مستقراً له ومقاماً منذ خلافة علي واتخاذها إياها حاضرة لخلافته ، وتكون حزب ثالث هو حزب الأمويين أصحاب السلطان ينصرهم ويؤيدهم ويدعو لهم ، وتكون حزب الخوارج الذى كان ينكر أن تكون الخلافة مقصورة على أى قبيلة : قریش أو غيرها ، ويرى



أن تكون شورى بين المسلمين يتولاها أكفؤهم وأحقهم بها ولو كان أعجمياً غير عربى حتى تتحقق المساواة والعدالة بين أفراد الأمة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن البطولة الحربية العربية لم تتمثل فى حزب كما تمثلت فى حزب الخوارج ، وقد تحول كل منهم إلى مجاهد شاكى السلاح يطلب الموت والشهادة فى ميادين الجهاد ، أما جماعاتهم فتحولت إلى كتائب حربية تقبل على الموت بنفوس راضية ، وكأنه الباب الموصد بينها وبين فراديس الجنان فهى تريد اجتيازه حتى تنتقل إلى الملاء الأعلى . ولم يكن يتمنى هذا الانتقال والسرعة فى تحقيقه دون ريث أو بطء رجالهم وحدهم ، بل كان يتمناه أيضاً نساؤهم وكان منهن من يحملن السيف معهن مثل أم حكيم بطلة الأزارقة ، وكانت من أشجع النساء وأجملهن وجهاً . وخطبها جماعة فردتهم ولم تجبهم ، وكانت تحمل على الناس ، وأصحابها يفدونها بالآباء والأمهات ، وهى تصول وتجول وترتجز بمثل قولها :

أَحْمَلُ رَأْسًا قَدْ سَمَّتَ حَمَلَهُ وَقَدْ مَلَيْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
أَلَا فَتَى يَحْمِلُ عَنِّي ثِقْلَهُ

وهى صورة رائعة للبطولة تصور فيها أم حكيم أمنيته فى الفوز بالشهادة ومدى ما كانت تحسه من بطء فى تحقيقها ، حتى غدت الحياة أمامها مملة مللا فظيماً ، وحتى أصبحت تشعر كأن رأسها الذى تريد له أن يفارق جسدها عبثاً ثقيلًا تحمله متنقلة به بين صفوف القتال ، وهى تريد أن تتخلص منه ، حتى تنفذ من حياة الدنيا الزائلة إلى حياة الآخرة الباقية .

ومن أكبر أبطال الخوارج قاطبة قطرى بن الفجاءة المازنى زعيم فرقة الأزارقة بفارس ، وقد ظل نحو عشرين سنة يقاتل جيوش الأمويين ، ويتنصر عليهم ، حتى قتل بعد معارك عنيفة ، وله أشعار كثيرة يصور فيها بلاهه فى الحرب ، والأمويون يرسلون إليه الحملة تلوالحملة ، وهو لا يريجهم ولا يستريح ، فبين جنبيه بطولة لا تقهر ، وهو يخاطر بنفسه ويقاوم ويدافع ما وسعته المدافعة فى كل شبر من الأرض ، لا يستسلم ولا يلقى السلاح خوفاً من حمام أو موت ، وما بنى يدعو نفسه إلى الصبر والثبات بمثل قوله فى حماسيته الملتهبة التى يخاطب فيها نفسه بقوله :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تُراعى
فإنك لو سألت بقاء يومٍ على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبراً فى مجال الموت صبراً فما نيلُ الخاود بمستطاعِ
ولا ثوبُ البقاء بثوبِ عزٍّ فيطوى عن أخى الخنع اليراعِ
سبيل الموت غاية كل حىٍّ فداعيه لأهل الأضن داعى
ومن لا يُعتبَطُ يَسْأَمُ وَيَهْرَمُ وتسلمه المنون إلى انقطاعِ
وما للمرء خيرٌ فى حياةٍ إذا ما عُدَّ من سقط المتاعِ
والقطعة تفيض ببسالة قوية لا تعرف ضعفاً ولا فتوراً ولا تردداً
ولا إحجاماً ، وهو يصور فيها نفسه فى المأزق الضنك حين لا يبقى من الموت مفر ، فهلع النفوس وتجزع ، أما هو فلا ينكص ، بل يظل

يقتحم أهوال الحرب مخاطراً مخاطرة جريئة بنفسه . وإنه ليدعوها أن تظل صلبة قوية ، ومم تخاف ؟ أمن الموت ؟ وهل يموت أحد إلا وقد بلغ أجله الذى قدر له فى أم الكتاب ؟ إن الجبن لا يطيل أجلا ولا يؤخر إنساناً يوماً عن يومه الموعود ، وإنه لحرى بكل إنسان أن يصبر فى الحرب حتى الموت ، وحتى لا يلحقه عار الفرار والاستسلام المهين ، وكل الناس ميتون ولن يخلد أحد ، وهل الحياة باقية ، حتى يحاول إنسان أن يستطيلها ويستبقها ؟ وفيم الحرص عليها ، وهى حياة بغیضة ثقيلة ؟ إن الناس جميعاً سيموتون ويأتى الموت على كل الأحياء ، ومن لا يعتبط أو بعارة أخرى من لم يمى فى عشوان شبابه مات هروماً قد سُم الحياة حتى ليريد أن يخلص منها ويستريح .

وإننا لنأسى لبطولة هؤلاء الخوارج إذ أنفقوها فى حرب إخوانهم فى الدين ، وكان حرياً بهم أن ينفقوها فى حرب أعدائهم الحقيقيين من الأمم الأجنبية ، إذن لما انقسم العرب فى أوائل أمرهم صفوفاً تتناحر وتتقاتل ويسفك بعضها دماء بعض ، ولظلوا مقبلين على فتوحهم ، ففتحوا بقية العالم ، وتغير وجه التاريخ .

في الحروب مع الروم

سحق العرب في عهد أبي بكر وعمر وعثمان الروم سحقاً ذريعاً اضطرتهم إلى أن يرفعوا أيديهم عن الشام ومصر ، وأخذوا يرفعونها عن إفريقية مكرهين مهزومين مقهورين ، حتى إذا ولي الأمويون تقدموا إلى المحيط الأطلسي وعبروا المضيق إلى إسبانيا حيث سهلت خيول فرسانهم على مشارفها الشمالية . وكان طبيعياً أن يعنى العرب منذ عصر عمر بن الخطاب ببناء أسطول يحمي ثغورهم الممتدة على البحر المتوسط ، وأخذ هذا الأسطول يجوب المياه الشامية والمصرية ، ودفعه معاوية إلى التغلغل في البحر ، ففتحت قبرص لسنة ثمان وعشرين للهجرة ، وفتحت رودس لسنة اثنتين وثلاثين ، وكسر تماها الضخم الذي كان يعد في العالم القديم إحدى عجائب الدنيا . ونشبت في البحر من أناجية الإسكندرية لسنة أربع وثلاثين موقعة ذات الصواري ، بين الأسطول العربي المصري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح والى مصر لعثمان والأسطول البيزنطي الرومي بقيادة إمبراطور بيزنطة قسطنطين بن هرقل ، وإنما سميت الموقعة بذات الصواري لكثرة ما كان بها من صواري المراكب ، وكانت عدتها ألفاً للبيزنطيين ، ومائتين للعرب ، وانتصر الأسطول العربي الحديث نصراً مؤزراً ، لم يعد البيزنطيون بعده يفكرون في غزو الشواطئ الشامية والمصرية والإفريقية . أما العرب فقد ظلت

قلاع أسطولهم وصواريه تنتشر في البحر المتوسط من حين إلى حين ، وظلوا يغيرون على الجزر الكثيرة المنشورة فيه ويغنمون ويعودون ، على نحو ما صنع الأسطول المصري بصقلية لسنة تسع وأربعين ، وقد عادوا إلى رودس ففتحوها لسنة ثلاث وخمسين ، واستقروا بها حيناً من الدهر وظل الأسطول المصري يغدو ويروح على الجزر الصغيرة حتى إذا كانت سنة ٨١ للهجرة أرسى بسفنه على جزيرة قوصرة التي تبعد نحو ستين ميلاً من صقلية ، فاستولى عليها ، وكان ذلك إرهاباً لا ستيلاء العرب في القرن الثالث على الجزيرة الكبيرة .

وظل العرب منذ استيلائهم على الشام لعهد عمر بن الخطاب يغيرون على الروم البيزنطيين في آسيا الصغرى ، وكأما كانت حركات أسطولهم إنما يُراد بها أن تسند هذه الغارات وما يتصل بها من غزوات ، وكادت أن تكون سنوية في بعض الأحيان ، وغالباً ما كانت تحدث في الصيف لبرودة الجو في الشتاء ولا امتلاء الطرق بالصقيع ، وكان الروم كثيراً ما يولون على وجوههم فارين حتى يصل الجيش العربي إلى الشاطئ المقابل لبيزنطة (القسطنطينية) ولا شيء يرد السيل العارم ، إلا أن يعود إلى منحدره ومصبيه . ومن أهم الغزوات لعهد معاوية ، غزوة ابنه يزيد لسنة اثنتين وخمسين ، إذ جهز له جيشاً اكتسح به آسيا الصغرى حتى بيزنطة ، وأعانه بأسطول مخر بحر مرمره وأجاز بالجيش المضيق ، غير أن الأسوار المنيعة حالت بينه وبين اقتحام العاصمة ، وحدثت على أبوابها بعض مناوشات قتل فيها الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري ، فدفن بأصل السور المحيط ببيزنطة ، ويثس العرب من الفتح فقفلوا

راجعين . وربما كانت أكبر غزوة للقسطنطينية في العصر الأموي غزوة مسلمة بن عبد الملك بن مروان لها في سنة ثمان وتسعين ، إذ وجهه أخوه سليمان إليها في جيش كثيف تدعمه حملة بحرية ، وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها ، فحاصرها حصاراً طويلاً ، شتا فيه وصاف ، قاهراً أهلها قهراً شديداً ، غير أنه عاد ورفع الحصار حين بلغه نبأ وفاة أخيه ، وكأنا ذهبت أدراج الرياح أمانى الأمويين في الاستيلاء على بيزنطة عسوة فلم يعودوا إلى حصارها ومحاولة فتحها ، ولكنهم ظلوا يفزون في آسيا الصغرى ، ويقتطعون من أطرافها قرى ومدناً مثل طرسوس وقاليقلا وقيسارية وخرشنة .

وفي كل ما أسلفنا من هذه الغزوات البرية والبحرية في الحقب الإسلامية الأولى كانت البطولة العربية تضطرم في نفوس الشجعان البسلاء ، يرفدها عتاد لا ينفذ من قوة النفس وصلابتها وعنادها وإحساسها العميق بكرامتها . وفي كل غزوة صغرى وكبرى كانت تلمع أسماء كثيرين من أشهروا بالبأس الشديد ، ويكفي أن نذكر منهم بطلاً واحداً هو عبد الله البطال الذي كان على طلائع مسلمة بن عبد الملك ، وقد شهد غزواته وحرابه مع الروم جميعاً ، وأوطأهم خوفاً ورعباً وذلاً ، وكان يتلو دائماً : (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) وكان إذا حمى الوطيس يصرخ : أعن الجنة تقعدون ؟ ثم يلقي بنفسه في نحور الأعداء ، فلا يزال يشق رءوسهم بالسيوف ، ولا يزال يطعنهم بالرمح مقاتلاً عن أصحابه ، ذائداً عن رفاقه . وعلى نحو ما كان يكثر من تقميل البيزنطيين في المعارك كان يكثر من أسرهم ، ويقال إنه أسر قسطنطين

إمبراطورهم لسنة مائة وأربع عشرة ، وافتدوه بمال كثير . وما زال يذبح منهم كل عام وينحرج حتى كانت سنة مائة واثنتين وعشرين للهجرة ، فانهمز الناس عنه في بعض المواقع وفروا لا يلبون ، وأبى إلا الثبات والإقدام ، وأخذ يدفع فرسه في استبسال ، وسمع عربياً ، يقول : واعطشاه فصاح فيه : تقدم ، الرئى وإطفاء الظمأ أمامك ، وتكاثر عليه الروم ، فخرّ شهيداً . وقد طارت شهرة بطولته في العصور الإسلامية التالية ، ومع مر الزمن تكونت حول شجاعته أساطير كثيرة هيأت لتأليف قصص متعددة حوله تصور بسالته الخارقة ، وهي في جمهورها قصص شعبية .

وتظل الحروب بين العرب والروم قائمة على قدم وساق في العصر العباسى ، وتخبو قليلا في عصر المنصور ، ثم تشتعل في عصر ابنه المهدي ، إذ يغير الروم في أوائل خلافته على سُميساط ، ويصمم على أن يكيلهم الصباع صاعين فيجرد لهم جيشاً ضخماً بقيادة العباس ابن محمد ، ينكل بهم تنكيلا شديداً ، وتتوالى تجهيزاته لهم ويعوثة ، حتى إذا كانت سنة مائة وثلاث وستين أعد لهم جيشاً كثيفاً جعل إمارته لابنه الرشيد واختار لمعاونته طائفة من كبار القواد فأنزل بهم خسائر جسيمة . وفي السنة التالية توغل الرشيد في آسيا الصغرى ، وافتتح عدة حصون ومضى حتى بلغ مضيق القسطنطينية ، غانماً ما لا يكاد يحصى من الدواب والسلاح ، واستنقذ من الأعداء كثيرين من أسرى قومه ، وقتل من العدو نحو خمسين ألفاً ، مما اضطر إمبراطور بيزنطة أن يتعهد لمدة ثلاث سنين بأداء الجزية كل عام : سبعين ألف دينار ، وامتنأ قلبه وقلوب شيعته من الهول والفرع . ويتوفى المهدي فينقض نقفور



إمبراطور بيزنطة العهود ، فقد تولى الخلافة الرشيد وظن ظناً فائلاً أنه لا يبلغ من الحزم مبلغ أبيه ، فكتب إليه مطالباً برد ما أداه من جزية في السنين الماضية ، وما إن يفض الرشيد الكتاب حتى يملأه الغضب فيكتب إليه على ظهره : «بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام » وسار إليه في سنة ثمان وثمانين ومائة ، فالتقى الجمعان ، وجرح نقفور ثلاث جراحات ، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة بلغت أربعين ألفاً . وفي سنة مائة وتسعين عاد إليه في جيش جرار بلغ تعداده مائة وخمسة وثلاثين ألفاً غير المتطوعين ، فاخترق آسيا الصغرى ، وسبى سبياً كثيراً وغنم مالا يحصى من الغنائم وافتتح هرقله إحدى مدنها الكبرى وخرّبها . وهال ذلك نقفور ، فتعهد أن يؤدي الجزية صاغراً. ونقض أهل قبرص عهدهم فزاهم الرشيد وردهم إلى الطاعة. وقد تغنى الشعراء طويلاً بانتصاراته على نقفور والروم وفتح هرقله ، من مثل قول أشجع السلمي :

برقت سماءك في العدو وأمطرتُ هاماً لها ظلُّ السيفِ غمامُ
رأى الإمام وعزمه وحسامه جُنْدٌ وراءَ المسلمين قيامُ
وصلتُ يداك السيف حين تعطلتُ

أيدي الرجال وزلتُ الأقدام
وعلاً عدوك يا ابن عمِّ محمد رَصْدان: ضوءُ الصُّبحِ والإِظلامُ
وإذا تنبّه رُعبتهُ وإذا غَفَا سَلَّتْ عليه سيوفك الأَحلامُ

ويقال إن الرشيد اهتز حين بلغ أشجع هذا البيت في القصيدة ،
وأمر بأن ينثر عليه الدر استحساناً وإعجاباً ، فقد عرف كيف يحسّم
ما أنزله بالروم ونقفور من الرعب الهائل ، وفي الوقت نفسه صور إقدامه
وحزمه وبأسه ونفاذ بصيرته وشدة شكيمته ، وكيف جعل أعداءه لا يفلتون
من الخوف صباح مساء ، بل إن فرائصهم لترعد دائماً ، لما يرون في مجال
الحرب من المرعوس المتطايرة والدماء المسفوحة السائلة .

ويدور الزمن دورة ، وإذا بنا في العقد الثاني من القرن الثاني
الهجري ، وإذا المأمون يعلم أن تيوفيل إمبراطور بيزنطة يضع يده في
يدبابك الثائر على الخلافة بأذربيجان ، ويملؤه السخط والغضب ، فيأخذ
منذ سنة مائتين وخمس عشرة يقود جيوشاً جرارة يهبط بها على آسيا
الصغرى يتقدمه قواده من أمثال أخيه المعتمم وابنه العباس وخالد بن
يزيد الشيباني وجعفر الخياط وعجيف بن عنبسة ، ونزل على أنطاكية
والمصيصة وطرسوس ، ووجه ابنه العباس بطائفة من الكتائب إلى
ملطية ، أما هو فاتجه بجيشه شمالاً إلى المطامير واستولى على حصون كثيرة
مثل قره وسندس وسنان بالقرب من هرقة . وعاد المأمون مظفراً إلى
دمشق وبغداد ، وظن تيوفيل أن الفرصة سانحة لانتقامه من تلك الغارات
العنيفة على بلاده ، فأغار على طرسوس والمصيصة ، وقتل من أهلها مقتلة
عظيمة ، وبالمثل صنع بخرشنة ، وأسر كثيرين من المسلمين ، وعاد إلى
القسطنطينية مبهتجاً ، واستقبل استقبالاً حافلاً . وعلم المأمون بغارته
فاستشاط غضباً ، وأسرع بجيش لسنة مائتين وست عشرة ، فاكسح
به الجنوب الغربي لآسيا الصغرى ، وكان الروم قد استردوا هرقة ،

ولم يكد جيشه يطل عليها حتى خرج إليه أهلها طائعين مذعنين ،
وانساح الجيش في إقليم المطامير ، والتقى أخيراً بتيوفيل وجيشه فهزمه
هزيمة ساحقة ولى على إثرها الأدبار مخلفاً وراءه غنائم كثيرة . وعاد
المأمون بجيشه المنتصر إلى دمشق ومنها اتجه إلى مصر في أوائل سنة مائتين
وسبع عشرة لقمع ثورة بها ، وسرعان ما انقمعت واستقرت الأحوال ،
وعاد مسرعاً إلى الحدود الرومية الشامية ، فاجتازها ونزل قرب أدنة ،
وتقدم الجيش أو كئاثب منه إلى حصن لؤلؤة ، غير أن تيوفيل فر منه
وأبعد في الفرار ، فعاد أدراجه دون قتال ، ودون استيلاء على حصون
سوى ما كان من تسليم حصن لؤلؤة وسكانه . وفي السنة التالية جهز
المأمون جيشاً ضخماً لقتال البيزنطيين ، ونزل به في أرض الروم بموضع
أونهير يسمى : البُدُنْدون ، وارتعدت فرائص الإمبراطور ، فأرسل إليه
يخبره نظير عودته بجيشه دون قتال ، إما أن يقبل أخذ نفقات جيشه وعتاده
وإما أن يقبل فك الأسرى من المسلمين دون فداء ، وإما أن يقبل أن
يصلح ما أفسد قومه من ثغور المسلمين على نفقته . وعنف المأمون بالرسول
ورده رداً غليظاً ، وتقدمت كئاثب تستولى على بعض الحصون ، وسرعان
ما لى نداء ربه ، فنقل جثمانه إلى طرسوس . ولعلنا لانبعد إذا قلنا إن أكبر
شاعر تغنى ببطلته وبطولة جيشه وكئاثبه وقواده في تلك الحروب المظفرة
هو أبو تمام ، وله يقول في إحدى مدائحه :

مسترسلون إلى الحتوف كأنما بين الحتوف وبينهم أرحامُ
أسادُ موت مُخَدَّراتُ مالها إلا الصوارمُ والقنا آجامُ
حتى نَقَضْتِ الروم منك بوقعة شنعاءٍ ليس لنقضها إبرامُ

وَقَصَمَتْ عُرْوَةَ جَمْعِهِمْ فِيهَا وَقَدْ جَعَلَتْ تَفْصِمَ عَنْ غُرَاهَا الْهَامُ

وهو يشير في القصيدة إلى أن المأمون في حروبه مع البيزنطيين يصادر عن شعور عميق بنصرة الدين الخفيف ضد أعدائه وما يملأ نفوسهم من استعلاء وشراسة وحدة . ويقول إنه يقود جيشاً كثيفاً ، موقناً بدينه ونصره مقدماً لا يلوى على إحجام ، وإن كل شخص في الجيش ليحس كأن بينه وبين ضروب الموت أرحاما متواصلة ، بل لكأنهم جميعاً آساد غاباتها وأجماتها السيوف والرماح ، وقد ظلوا يطعنون بها الروم حتى كأنما لم يعد من الممكن أن ينقضوا هذا النصر المبين الذي قصم ظهورهم ونثر رؤوسهم وسحقهم سحقاً .

وتولى الخلافة بعد المأمون أخوه المعتصم ، وكان يصحبه معه في حروبه للروم ، وله فيهم غارات وانتصارات مجيدة ، وبمجرد أن ولي الخلافة أخذ يعنى بجيشه ، فأكثر فيه من المماليك الترك ذوى البأس ، واتخذ لهم معسكراً بعيداً عن بغداد في سامراء ، وجعلها حاضرة له ، وسرعان ما أصبحت مدينة ضخمة . ولم يلبث جيشه أن قضى على بابك وثورته في أذربيجان قضاء مبرماً ، ويقال إن المعتصم كان من أشد معاصريه قوة وإنه جعل يد رجل بين لإصبعين من أصابعه فحطمها حطماً . وبينما كان جنده يضيقون الخناق على بابك وجموعه في أذربيجان تراسل مع تيوفيل ، منيا له الأمان في الانتصار على المعتصم ، لانشغال جيشه وقواده بحربه ، ولكى يزيده إغراء أرسل إليه طائفة من جنوده ، ولم تواف سنة مائتين وثلاث وعشرين حتى جهز تيوفيل جيشاً جراراً من مائة ألف مقاتل ، واتجه به إلى أعالي الفرات آملاً في الاتصال بثائز

أذربيجان وأصحابه ، وسرعان ما سلمت له ملطية ، وقاومت زبطرة الواقعة في جنوبها الغربي ، فرميت بالمجانيق وقتل أهلها وسبى نساؤها وأطفالها ، وصاحت امرأة الروم يجرونها في الأغلال : وامعتصماه ! مستغيثة بالخليفة مستنجدة . وبلغته استغاثتها وهو ببغداد ، فصاح : لبيك لبيك ! وأمرتوا بالنفير للحرب ، فاجتمع له قواده العظام من أمثال محمد بن يوسف الثغري الطائي وأشناس وجعفر بن دينار والأفشين وعجيف ابن عنبسة ، وأخذ في تجهيز جيشه بالزاد والسلاح ، وعبأه ، ثم ركب فرسه في مقدمته وكان قد سأل أى بلاد الروم أمنع ؟ فقيل له عمورية فنقش اسمها على التروس والألوية ، وتنبأ بعض المنجمين بإخفاق الحملة فلم يعرف تنبؤهم أى اهتمام ، ومضى مسرعاً يريد الانتقام من الروم وردعهم . ونزل بالقرب من طرسوس ، وقسم جيشه حتى يطوقهم من جهات مختلفة ، وجعل الغاية أنقرة في الشمال الشرقي لعمورية ، ومضت أقسام الجيش وكراديسه منزلة بتيوفيل وجنوده هزائم ساحقة ، والتقت في أنقرة وحربتها ودمرتها تدميراً ، ثم اتجهت إلى عمورية ، فحاصرتها خمسة عشر يوماً ، وظلت ترمى أسوارها وأبراجها بالمجانيق حتى حرقها وهدمتها واستبيحت من بقي بها من الجند والقادة فاستسلموا بعد قتال مرير ، باغ قتلاهم فيه تسعين ألفاً . وتفرقت كتائب المعتصم وكراديس جيشه في آسيا الصغرى تستبيح مدن الروم وتسبي نساءهم وتأسر رجالهم وتضع في أيديهم وأرجلهم الأغلال والقيود وتوطئهم ذلاً وصغاراً ورعباً ، غير ما أخذت من الغنائم التي لا تكاد تحصر . وكان فتحاً مبيناً أفاءه الله على المعتصم والعرب ، مما جعل الشعراء

يهتفون به ملوحين بأيديهم وأشعارهم في وجوه الروم طويلا ، وأبو عامر أكبر شاعر سجّل هذا الفتح ، بل لقد حول تسجيله له إلى ملحمة الرائعة التي يستهلها بقوله :

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكُتُبِ في حدِّه الحدُّ بينَ الجِدِّ واللَّعبِ

وهو بذلك يعلن أن القوة فوق العقل ، وهل يمكن لعقل أمة أن يأخذ حظه من الحياة والازدهار دون قوة ترعاه وتسنده . وقد مضى بهمكم بنبرة المنجمين ، ذاهباً إلى أن العلم الصادق إنما هو في لوامع السيوف لا لوامع النجوم والكتب ، وأخذ يشيد بالانتصار العظيم في عمورية ، مجسماً ما حدث لها من حريق تعالت ثيرانه وترامت في الآفاق حتى كأن الظلام رغب عن لون رداثه الأسود ، أو كأن الشمس لاتزال ساطعة . ويجسّد أبو تمام بطولة المعتصم وما يدلح في قلوب الروم من الهول والفرع ، فيقول :

لم يَغزُ قوماً ولم ينهض إلى بلدٍ إلا تقدّمه جيش من الرُّعدِ
لولم يقدر جَحْفاً ليوم الوغى لَغداً من نفسه وحدها في جفَلٍ لجحِب

فدائماً يسبق جيشه الحربى إلى بلاد العدو جيش نفسه من الخوف والرعب ، ويفكر في صلابة المعتصم وشجاعته التي لا تعرف ضعفاً ولا خوراً ، وإنما تعرف المضاء والتصميم والقوة التي تهدد كل ما تلقاه وتعرضه للخطر ، حتى لكأن المعتصم وحده جيش جرار ، ويحيى فيه نجدته للمرأة الزبطرية قائلاً :

لَبَّيْتُ صَوْتًا زَبَطْرِيًّا أَرَقَّتْ لَهُ كَأْسَ الْكُرَى وَرُضَابَ الْخُرْدِ الْعُرْبِ

فهو قد لبَّى صوتها ودعاهها نافضاً عن عينيه النوم حتى ينتقم لها ،
ورافضاً رضاب الغيد الحسان حتى يسترد شرفه مهما تجشم من الأهوال
وتحمل من الخطوب . ويمضى فيتحدث عن المعركة وما كان بها من
عراك وجلاد وقتال ودماء سالت أنهاراً ، وتيوفيل يهرب من مكان إلى مكان
ومن أكمة إلى أكمة ، يطلب النجاة من أسد الشرى . ويحتم أبو تمام
قصيدته بل ملحمة الموازنة بين يوم عمورية ويوم بدر ، فإذا كان اليوم
الأخير موقعة فاصلة بين الشرك والإسلام فإن يوم عمورية بدوره موقعة
فاصلة بين الروم والعرب ولن تقوم لهم من بعده قائمة ، وستظل وجوههم
يغشاها الذل والهوان .

وحتى الآن لم نعرض لبطولات الأسطول العربي وقادته الذين أمَّنوا
شواطئ الشام ومصر وإفريقية في العصر العباسي ، وكان هذا الأسطول
لا يزال يمتدحر عباب البحر المتوسط ، وقد نشر ألويته ، وهو تارة يرسى
على هذه الجزيرة ، وتارة يغير على تلك ، وماتوا في سنة مائتين واثنتي
عشرة ، حتى استولى العرب على جزيرة كريت وتصيح خالصة لهم ،
وبعد نحو خمس عشرة سنة يُسْزَلون عن صقلية علم البيزنطيين ويرتفع
مكانته كعلم العرب بعد جهود عنيفة ظلت نحو عشرة أعوام متعاقبة .
وفي هذه الأثناء كان الأسطول العربي العباسي يقظاً ، وقد رأى قائده
أحمد بن دينار بن عبد الله أن يتجه به نحو بيزنطة لعله يلتقي بالأسطول

الروى ، والتقى الأسطولان لسنة مائتين واثنين وثلاثين للهجرة في أوائل
 خلافة المتوكل ، ولم يلبث الأسطول الروى أن دمر نهائياً وفر قائده هارباً ،
 ولم تسجل كتبنا التاريخية هذه المعركة البحرية وما أبلى فيها ابن دينار
 قائد البحر وإنما سجلها المؤرخون البيزنطيون ، وإن البحترى لخليق
 بالثناء حين سجل هذا المجد الحربى لابن دينار وأسطوله في إحدى مدائمه
 له ، وقد صورته يتقدم الأسطول ذات صباح في مركبه الميمون ،
 والأسطول يقوم بعرض بحرى ، وبعض الملاحين يعتلون أبراج السفن ،
 والجنود يتأهبون للحرب وقد اصطفوا صفوفاً لتلقى الأوامر من الإشتيام
 أو بعبارة أخرى من أمير البحر ، ثم يأخذ البحترى في وصف المعركة
 يقول :

غدوت على الميمون صُبْحاً وإنما	غد الموكب الميمون تحت المظفر
إذا زمجر النوقى فوق علاته	رأيت خطيباً في ذوابة منبر
يغضون دون الإشتيام عيونهم	وفوق السماط للعظيم المؤمر
وحولك ركابون للهول عاقروا	كثوس الردى من دارعين وحسّر
إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم	ليقلع إلا عن شواءٍ مقتر
صدمت بهم صُهب العثانين دونهم	ضراب كإيقاد اللظى المتسعر
يسوقون أسطولا كأن سفينه	سحائب صيفٍ من جهام وممطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم	إذا اختلفت ترجيع عودٍ مَجْرَجِر
تقارب من زحفهم فكأنما	تولّف من أعناقٍ وحشٍ منفر

فما رمت حتى أجلت الحرب عن طلى

مقطعة فيهم وهام مطير
على حين لانتع يطوحه الصبا ولا أرض تُلْفَى للصريع المقطر

وواضح أن البحرى في الأبيات الثلاثة الأولى يصور استعراض ابن دينار لأسطوله وحركته البحرية وإعداده للمعركة الحاسمة ويمضى في وصفها ، فيقول إن جنود الأسطول العربى مدربون على القتال فى البحر : الدارعين منهم وغير الدارعين ، ودأبما ينشطون فى رشق قذائف النار التى تحمى كل ما تمسه إلى ما يشبه لهما مشويًا طلاه سواد القطار أو الدخان . وسرعان ما نشبت المعركة بينهم وبين الروم صهب العنانين أو بعبارة أخرى حمر اللهى ، وقد صوبوا عليهم قذائفهم المحرقة ، والبحر يزجر زجيرة عود مجرجر أو بعبارة أخرى زجيرة بعير يهادر بصوته ، وقد تقارب الزحفان العربى والرومى بل التحما التحام وحوش كاسرة متنافرة . ويقول إن ابن دينار مازال يشعل الحمية فى قلوب جنوده حتى محقوا الروم وحتى أجلت الحرب وتكشفت عن طلى أو أعناق مقطعة ورعوس مطيرة متناثرة . وهى معركة فى البحر لا يرتفع فيها الغبار كما يرتفع فى معارك البر ، ولا يترامى الصرعى فيها على الأرض بل يغورون فى المياه إلى غير مآب .

ونمضى إلى القرن الرابع الهجرى وتلتقى فيه بسيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، وهو أعظم بطل عربى تألق نجمه فى سماء الحروب الرومية ، إذ تحول بجنوده إلى ما يشبه سداً ضخماً يصد سيول الروم : بل لقد تحول

إلى ما يشبه صحوة عاتية تمحطم عليها غاراتهم وحمالاتهم ، بل إنه حوّل ديارهم وأوديتهم إلى حرائق تسيل من تحتها دماؤهم المسفوحة ، وكأنما تجسدت في ضميره البطولة العربية بكل أمجادها الحربية ، وأحسّ المنتبى كأنما هو الأمل الذي ظلت تمخضه العصور للعرب وظلوا يبحثون عنه طوال أيامهم ولياليهم ، أو قل أحس كأنه منقذ أرسلته العناية الإلهية ليرد عنهم عدوان المغيرين البيزنطيين في عصر خارت فيه قوى الخلافة العباسية ولم يعد لها حول ولا طول ولا من القدرة شيء .

فهبّ هذا البطل يذود عن الحمى والذمار ويدافع عن الديار ، بل لقد مضى يغير على البيزنطيين وينزل بهم هزائم ساحقة وهم يولولون وينديون ضارعين . ولم يكن له عون في هذا المجد الحربى الرائع سوى الرقعة الصغيرة لحلب إمارته وما حوالها ، ومع ذلك ظل يقلم أظفار قواد بيزنطة وجيوشها الجرارة ، وظلت سيوفه وسيوف جنوده البسلاء تسيل دماء البيزنطيين أنهاراً . وكان طبيعياً أن تمتلئ ساحات حلب وأفنية قصوره فيها بالشعراء الذين جاءوه من كل مكان ليشيدوا ببطلته وبطولة جنوده ولم يلبث المنتبى أن قدم عليه ، وكان قد أعياه البحث عن بطل عربى يرد عن العرب ظلم الحكام الأعاجم المتسلطين على الخلافة في بغداد ، ويدفع عنهم ما يتعرضون له من غوائل العدوان ، وكأنما رأى في سيف الدولة وبطشه بالروم من يحقق له أحلامه في البطولة العربية المفقودة ، وكان هو نفسه فارساً مقداماً ، فأطال المقام عند البطل الحمدانى تسع سنوات طوالاً ، يرافقه في معاركه ، وعليه درعه وزرده ، وبيده سيفه ، وفرسه يصهل ويلوح بعرقه . ويعود معه بعد كل معركة ؛

وقد امتلأ قلبه حماسة وبهجة بالنصر ، فینشده قصائده مصوراً بطولته وبطولة حشوده ، وهى ليست قصائد بالمعنى المألوف ، إنما هى أناشيد حربية تموج بصليل السيوف وحممة الخيول ، كما تموج بالحفيظة والحق على أعداء العروبة البيزنطيين . وهى ليست أنشودة ولا أنشودتين إنما هى مجاميع كبيرة من أناشيد ، سماها الأسلاف بالسيفيات نسبة إلى بطلها المغوار سيف الدولة . ولن نستطيع الوقوف عندها جميعاً ولذلك سنكتفى بالوقوف عند واحدة منها ؛ وهى التى نطمت فى معركة حصن الحدّث أحد المنافذ إلى بلاد الروم ، وكان البيزنطيون قد خربوه لسنة ثلثمائة وسبع وثلانين حتى لا يكون شوكة فى ظهورهم ، فصمم سيف الدولة فى سنة ثلثمائة وثلاث وأربعين على إعادة بنائه ، ووضع الأساس بيده ، وبينما هو قائم على هذا البناء إذا القائد الرومى برداس فوكاس يرميه بجيش عداده خمسون ألفاً ، ولم يكن مع سيف الدولة سوى بضع مئات من فرسانه ، واحتدمت المعركة ، وغلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة ، بل لقد دمرتها تدميراً إذ سقط فى الميدان ثلاثة آلاف من الروم ، ووقع كثير من البطارقة أسرى وكان ممن سفك دمه ابن بنت برداس وصهره ، أما هو ففرّ بجملده . وكان المتنبي مرافقاً لسيف الدولة ، وأبلى فى المعركة بلاء حسناً ، حتى إذا انتهت نهايتها المظفرة الرائعة وقف بين يدي سيف الدولة ينشد هذه القصيدة ، وقد بلغ فيها الذروة فى التعبير عن بطولة سيف الدولة وكماته الشجعان وإحساس العرب العميق بالعداء المستعر بينهم وبين الروم يقول فى فواتحها :

يكلّف سيفُ الدولة الجيشَ همّةً
 وقد عجزتُ عنه الجيوشُ الخضارُمُ
 يفدّى أتمُّ الطيرَ عمراً سلاحه
 نسورُ الملاّ أحداثُها والقشاعُمُ
 وما ضرّها خلُقٌ بغيرِ مخالِبِ
 وقد خلقتُ أسيافه والقوائِمُ
 هل الحدّثُ الحمراء تعرفُ لونها
 وتعلمُ أيُّ الساقين الغمامُ
 سَقَتها الغمامُ الغرُّ قبلَ نزوله
 فلما دنا منها سَقَتها الجماجمُ
 وكان بها مثلُ الجنونِ فأصبحتُ
 ومن جُثثِ القتلى عليها تائمُ

والنتبي يعجب من تكليف سيف الدولة لكاتبه الصغيرة أن
 تنهض بهمة في الحرب، وهي همة أعظم من أن تنهض بها الجيوش
 الضخمة، ومع ذلك فإن جيشه القليل يحقق دائماً من الانتصارات
 ما يهول ويروع، ويقول إن نسور الملا صغارها وقشاعها أو
 عظامها تفديه بأرواحها لما يخلف لها دائماً في المعارك من الأشلاء،
 ويقول لو أنها خلقت بدون مخالِب قوية تفرس بها صيدها من بغاث
 الطير ماضرها ذلك، لأن رماح سيف الدولة تبلغها ما تريد وتقدم

لها ما تطلب من القوت والمتونة . ويتساءل المتنبي هل اللون الأحمر الذي كسا قلعة الحدث تعرفه وتعرف مصدره من دماء الروم التي لطخت حوائطها بلونها القاني ؟ وهل تعلم أى الساقين سقاها : الغمام أم الجماجم ؟ ويقول إن السحاب جادها قبل حلول سيف الدولة ، فلما حل بها سقاها من دماء الأعداء ما شفاها مما كانوا أصابوها به من غارات وجراح . ويقول إنه كان بها ما يشبه الجنون ، فأعاذها سيف الدولة بتأم كثيرة من قتلى الروم أذهبت عنها العلة ، فسكنت وعاد إليها عقلها السليب . ويأخذ في تصوير جيش الروم وعدده وأسلحته وعديده وتلاقى زحفه مع زحف سيف الدولة ، وأصحابه ، يقول :

أَتَوْكَ يَجْرُونَ الْحَدِيدَ كَأَنَّهُمْ سَرَوْا بِجِيَادٍ مَا لَهِنَّ قَوَائِمُ
 إِذَا بَرَقُوا لَمْ تُعْرِفِ الْبَيْضُ مِنْهُمْ ثِيَابَهُمْ مِنْ مِثْلِهَا وَالْعَمَائِمُ
 نَحْمِيسُ بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ

وفي أُذُنِ الْجُوزَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ
 تَجْمَعُ فِيهِ كُلُّ لُسْنٍ وَأُمَّةٍ فَمَا تُفْهَمُ التَّحْدَاثَ إِلَّا التَّرَاجِمُ
 فَلِلَّهِ وَقْتُ ذَوْبِ الْغَيْشِ نَارُهُ فَلِمَ يَبْقِ الْأَيْصَارُ أَوْ ضَبَارِمُ
 تَقَطَّعَ مَا لَا يَقْطَعُ الدَّرْعَ وَالْقَنَا وَفَرَّ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا يَصَادُ
 والمتنبي يصور فرسان الروم يثقلهم ما يلبسونه وتلبسه خيلهم من الحديد والفولاذ ، فعلى رؤوسهم الخوذ ، وعلى أجسادهم الدروع وفي أيديهم التروس الضخمة ، وعلى الخيل السروج والحديد المصفتح الذي لا تكاد تبين منه قوائمها ، وكل هذا الحديد يلمع تحت الشمس

فلا يكاد الإنسان يميز بين سيوفهم وما يلبسونه ، إذ كل ذلك حديد يلمع ويبرق . ويقول إن خيسهم أو جيشهم ملاً بكثرته الآفاق شرقاً وغرباً حين أخذ يزحف للمعركة ، كما ملاًها بعجيجه وضجيجه حتى لكأنما زمازمه أو أصواته بلغت عنان السماء وارتفعت إلى أذن الجوزاء وهي أصوات أخلاط من البيزنطيين ومن وراءهم من الأوربيين . أصوات مستعجمة متناكرة فيما بينها فما يتفاهم المتحدثون منهم إلا بترجمين ينقلون عنهم . ويقول عجباً : لله يوم هذه المعركة ، فقد محا تمويه من يتظاهرون بالبطولة والفروسية ، وكأنه نار صهرت التمويه والغش والخداع فلم يبق ولم يثبت سوى الصارم أو السيف القاطع والضبارم أو الأسد الشجاع ، أما السيف الكليل فقد تقطع وأما الجبان فقد ولّى الأدبار . ومضى المتنبى يصور سيف الدولة وبسالته في جحيم المعركة ، وهو يشهد بقلب ثابت الانتصار العظيم وهزيمة العدو وأمامه ، وخيله تلحق به في ذرى الجبال طاعنة فاتكة نائرة جثته وأشلاءه ، يقول :

وقفت وما في الموت شكُّ لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائمُ
تمرُّ بك الأبطال كلَّمى هزيمةً ووجهك وضاحٌ وتغرُّك باسمُ
ضممتَ جناحيهم على القلب ضمةً

تموت الخوافى تحنُّها والقوادمُ
بضربٍ أتى الهامات والنَّصرُ غائبُ
وصار إلى اللَّبات والنَّصرُ قادمُ

حَقَرْتُ الرُّدَيْنِيَّاتِ حَتَّى طَرَحْتَهَا
وَحَتَّى كَأَنَّ السِّيفَ لِلرَّمْحِ شَاتِمٌ

ومن طلب الفتح الجليل فإنما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم
نثرهم فوق الأحيديب نثرةً كما نثرت فوق العروس الدراهم
تدوس بك الخيل الوكور على الدررى

وقد كثرت حول الوكور المطاعم

تظن فراخ الفتح أنك زرتها بأمامتها وهى العتاق الصلادم

إذا زلقت مشيتها ببطونها كمامتمشى فى الصعيد الأراقم

وهو تصوير رائع لبطولة سيف الدولة وأنه كان يمتلك أعظم معاني

البسالة الحربية وأرفعها ، فقد مثله المنبى لا يهاب الموت ولا يرهبه فى

أشد المواقف وأخطرها تعرضاً له ، وقال إنه دائماً يقتحم مواضعه مخاطراً

بروحه ، غير أن الموت يعرض عنه حتى لكأنه لا يبصره ، بل كأنه

يغفل عنه بنومه ، مع أنه فى جفنه وهو محيط به محقق بشخصه ، لكثرة

ما يزوج بنفسه فى معارك القتل ومعاطبه ، ويقول المنبى إنه بلغ من جلادة

سيف الدولة فى المأزق المتلاحم لهذه المعركة الخطيرة أن كان يمر به

أبطال الروم جرحى مهزومين مدحورين ووجهه لا يكلح ولا يعبس ،

بل يستبشر ويبتسم واثقاً بالنصر . ويصف قدرته الحربية ، فيقول :

إنه لف جناحى جيش الروم على قلبه لفة منكرة شدة فيها عليهم شدة

صادقة : فإذا المتقدمون منهم والمتأخرون ينجرون صرعى وقد صورهم

بالخوافى والقوادم فى جناحى الطائر وهى الريشات القصار والطوال
 كأنه لم يبق منهم باقية . ويقول إنه كان يطعنهم بضرب لا يصيب
 الرعوس فحسب ، بل يسقط فى النحور ، وكأنما كان النصر قد طال
 غيابه وأهلت تابشيره. ويستمر فى وصف بطولة سيف الدولة: فيقول:

إنه طرح الرماح الردينية فلم يحارب بها : وحارب بالسيوف الماضية التى
 تعلوها بالطنن القريب المميت ، مما جعل السيوف تشعر بالاستعلاء
 على الرماح وتناها بالتصغير والتهوين ، ويقول حقاً أن السيوف الخفيفة
 القاطعة هى التى تفتح أفقال النصر المغلقة . وكأنما تجسدت فى نفس
 المنتبى فرحته وفرحة سيف الدولة وفرسانه بهذا النصر الهائل ، فإذا هو
 يتصور تناثر جثث الروم وأشلاءهم على جبل الأحيدب بجوار مدينة
 الحدث عرساً لذلك المجد الحربى وزفافاً، وما الأشلاء والجثث إلا الدراهم
 التى تعود العرب فى أعراسهم أن ينثروها على العروس فرحين مبهجين .
 ويقول إن خيول سيف الدولة كانت تصعد وراء المنهزمين فى ذرى
 الجبال تقتل فيهم ، حيث وكور النسور ، وكأنما تهدى إليها طعاماً
 وزاداً لا ينفد ، حتى لتظن فراخها الصغيرة أنك زرتها بأمهاتها ،
 لما تقدم إليها من أقواتها، وأنت إنما زرتها بجيادك الكريمة القوية الصلبة
 التى تدربت على صعود الجبال ، حتى إذا تصعب السير عليها زحفت على
 بطونها كما تزحف الأفاعى فى المرتفعات. وعلى هذا النحو كان المنتبى
 يتغنى ببطولة سيف الدولة هذا الغناء الملهب الذى يشعل الحماسة فى
 نفس كل عربى ، وهو غناء صدر عن قلب شاعر عربى عاش مجده
 البطولة العربية حتى إذا رآها مصورة فى شخص سيف الدولة وما يتزل

بالروم من الموت الفاتك أخذ يترتل تلك الأناشيد مديباً فيها كل ما ضم عليه جناحه من قوة وكل ما رآه في سيف الدولة من شجاعة وبأس شديد، وكأنما وهب نفسه لحرب الروم ، فقد ظل يجالدهم ويصارعهم ويتزل بهم القتل المدمر والهزائم المنكرة، لا يصرفه عن ذلك شيء من مشهيات الدنيا ومتاعها، فتاعه ومشهاه جهاد الروم وما يحتمله في ذلك من العناء الشاق والجهد العنيف . ويحكى عنه أنه لم يكن يأبه لمجالس الأنس كعادة الحكام في عصره ، ولا نشغاله الدائم بتدبير الجيش وممارسة الحرب وأنه دعاه ذات ليلة بعض أقربائه للاستماع إلى الغناء من بعض المغنين البغداديين المشهورين الذين أُلوا بلجب حاضرتة ، فقال لداعيه : « أنا مشغول بقرع الحوافر عن المزاهر » وهي كلمة تلخص بطولته وأنه عاش كما قال المتنبي آنفاً يقف نفسه أمام الموت وقد فغرفاه ، بل إنه ليقتمح عليه جفنه غير عابئ به ، وكأنما قهره وغلبه وفرض عليه سلطانه ، فسلطه على أعدائه . ويقال إنه غزا الروم أربعين غزوة ، وقدر له أن يموت على فراشه حتف أنفه ، وقد أوصى بأن يوضع خدّه في قبره على لبنة جمعها مما علق بشيابه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم ، لبنة ظاهرة تشهد في لحده على بلائه في الجهاد وأنه لم تنتكس له راية ، ولا تأبت عليه غاية .

وليس المتنبي وحده الذي نظم الأناشيد المدوية في بطولة سيف الدولة ، فقد وفد عليه أكثر الشعراء النابهين في الشام والعراق يتغنون ببسالته من مثل الوأواء الدمشقي والسرى الرفاء والناشي والزاهي والحالديين ، وأبنه من هؤلاء جميعاً ابن عمه أبو فراس الحمداني الناشيء في حجره

وزوج أخته ورفيقه في حروبه ، وكان فارساً لا يجارى كما كان شاعراً
لا يبارى . وحدث أن أغار الروم على حلب في سنة ثلثمائة وإحدى وخمسين
غارة شعواء ، وانسلت منهم كتيبة أو كتائب إلى منبج في الطريق إلى
حاضرة سيف الدولة ، وكان يتولاها أبو فراس فدافع دفاع الأبطال
إلى أن أثنى بالجراح وأسر الروم ، وأخذوه إلى خرشنة ، ثم نقلوه إلى
القسطنطينية ، وبقي في هذا الأسر نحو أربع سنوات ، وهو يكتب
سيف الدولة ليسرع في فدائه حتى إذا كانت سنة ثلثمائة وخمس وخمسين
خرج ثلاثة آلاف أسير إلى خرشنة ، اقتداهم جميعاً ابن عمه . وله
أشعار كثيرة نظمها في هذا الأسر تسمى بالروميات ، وهي تفيض
بالحنين إلى أمه وأهله ووطنه ، كما تفيض بالجلد والحماسة والقوة وكأنه
صخرة تفتت عليها الأحداث والخطوب مهما تكن مريرة ، ومهما تكن
غصصاً وشجى في الخلق ، وربما كانت خير قصيدة تصور هذه
البطولة النفسية رائيته ، وفيها يقول :

وإني لجَرَّارٌ لكل كَتِيبةٍ مَعُودَةٍ أَلَّا يُعْخِلَ بِهَا النَّصْرُ

أَسِرْتُ وما صَحْبِي بِعُزْلِ لَدَى الوَغَى

وَلَا فَرَسِي مُهْرٌ وَلَا رَبِيَّةٌ غَمْرٌ

وَلَكِنْ إِذَا حُمِّ الْقِضَاءُ عَلَى امْرِيٍّ فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقيهِ وَلَا بَحْرٌ

يَمْنُونُ أَنْ خَلَّوْا ثِيَابِي وَإِنَّمَا عَلَيَّ ثِيَابٌ مِنْ دِمَائِهِمْ حُمْرٌ

وَقَائِمٌ سِنِي فِيهِمْ أُنْدَقٌ نَصْلُهُ وَأَعْقَابُ رَمَحِي فِيهِمْ حُطْمُ الصَّدْرِ

سَيِّدُ كَرْنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جَدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

ونحن أناس لا توسط. عندنا لنا الصِّدْرُ دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم يُغَلِّها المَهْرُ

وأبو فراس يصور نفسه قائداً مقداماً يقود الجحافل الجرارة إلى النصر
ويدافع حمية عن أسره ، فقد أسره العدو بغتة ، وإنه لمن قوم شجعان
يستبسلون في القتال والتزال ، وهو نفسه بطل ، بل فارس له فرسه
القارح ، وله نباهته بين الفرسان ، فهو ليس غمراً مغموراً أو مجهولاً .
بل هو فارس مشهور ، ولكن لا دافع للقضاء النازل . ويلتفت إلى الروم
وهم يمنون عليه بأنهم لم يخلعوا عنه ثيابه إكراماً له ، فيقول وقد أخذته
الأنفة والعزة إن ما على ثيابي من حمرة تلتخطها إنما هي خضاب
من دماهم ، وكم اندقت في قلوبهم وأجسادهم ورءوسهم نصول
سيوفه ، وكم تحطمت في صدورهم صدور رماحه . ويقول إن
قومه سيذكرونه بل سيفتقدونه حين ينزلون الروم ويحمي الوطيس على
نحو ما يفتقد الناس البدر في الليلة الظلماء . ويقول إننا أناس يتعمقنا
الشعور بالكرامة والاعتداد بالنفس ، إما الصدر وإما القبر ، وإننا
لنبذل نفوسنا في سبيل المحامد راضين شأننا شأن من يخطب الحسناء
فإنه يبذل في سبيلها أي مهر وأي صداق ، وفرق بعيد بين بذل المال
وبذل الروح الغالية .

وكانت هناك بطولات أخرى في المغرب العربي : في إفريقية
والأندلس ، فتذ وضع العرب أقدامهم هناك وهم في صراع مع أعدائهم ،
وأحسوا أنه لا بد لهم من أساطيل تحمي شواطئهم . ولا تكاد نمضي في

القرن الرابع حتى نجد عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس يعنى ببناء أسطول ضخم ، ونافسه في ذلك الفاطميون منذ ظهوروا في المهديّة بالقرب من القيروان بتونس ، فقد مضوا يعنون ببناء أسطول لهم وإعداده حتى لا يأخذهم الروم على غرة ، وكان لهذا الأسطول أثر كبير في فرض سلطانهم على المغرب الإفريقي أولاً ثم في امتداد هذا السلطان إلى مصر ثانياً . ويتولى الخلافة المعز فاتح مصر ومؤسس القاهرة ، ويقدم عليه من قرطبة ابن هاني الأندلسي وهو لا يزال في المهديّة ، فيستخلصه لنفسه ، ويصبح شاعره الذي يشيد بكل أعماله ، ويرى أسطوله ، فينظم قصيدة طويلة في وصفه ، وفيها يقول :

أما والجواري المنشآت التي سرت

لقد ظاهرتها عدةٌ وعديدُ

وماراع ملك الروم إلا اطلاعها تنشر أعلامُ لها وبُنود

عليها غمامٌ مكفهرٌ صبيُّهٌ له بارقاتٌ جمّةٌ وروعُدُ

من القادحات النار تضرّم للصلي

فليس لها يوم اللقاء خمودُ

إذا زفرت غيظاً ترامت بمارجٍ كما شُبَّ من نار الجحيم وقود

فأفواههن الحاميات صواعقُ وأنفاسهن الزيفرات حديد

لها شعلٌ فوق الغمار كأنها دماءٌ تلقَّتْها ملاحفٌ سودُ

وليس لها إلا الرياحَ أَعِنَّةٌ وليس لها إلا العجَابَ كَدِيدُ

وواضح أن ابن هاني يفتتح أبياته مقسماً بسفن هذا الأسطول الذي
تغمره المهابة والجلالة قائلاً إن عليها عدة ضخمة من السلاح وعديداً ضخماً
من الجنود ، ويقول إنها بكثرتها وبموكبها الرائع في البحر المتوسط وهي
تنشر أعلامها وقلاعها وسحب دخانها وبروقها اللامعة وروعها القاصفة
قد ألقت القرع في قلب ملك الروم . وإنها لمن قاذحات النار الحامية
التي تشوى الوجوه والتي تظل مشتعلة أعظم اشتعال يوم اللقاء ، قاذفة
بالحمم والشعل لا تفر ، وكأنما يداخلها غيظ وحرق ملتهب حتى لكأنها
نار الجحيم التي تغلي كالمهل . وإنها لتلطف النار صواعق ترسلها على
العدو حتى تأتي عليه ، وإن أنفاسها لمقامع ملتهبة من حديد ، وإن
شعلها المحمرة لتساقط على المياه وكأنها دماء تتساقط على ملاحف سود ،
ملاحف الماء في الليالي الداجية . وإنها لتعدو مسرعة ، وكأنها خيل تعدو على
أرض صلبة وبأيدي فرسانها أعنتها يحنونها على العَدُوِّ والسريع ، ولا أعنة
ولا خيل ولا أرض صلبة أو كديد ، إنما هي الرياح تدفعها هذا الدفع
الخيث .

في الحروب الصليبية والمغولية

لا نكاد نبلغ أواخر القرن الخامس الهجري حتى تدوّى في أوروبا الغربية صيحات البابا إيربان الثاني بإشعال الحروب الصليبية لاستخلاص الديار المقدسة من أيدي المسلمين ، وترددت مع صيحاته صيحات القسس في كل مكان وانعقد مجمع كليرمونت المشهور وفيه منحت صكوك الغفران لكل من يحمل الصليب وينهض لتخليص بيت المقدس ، واستجاب الأوروبيون من كل قطر من شمالي أوروبا إلى جنوبها ، من الدانمارك إلى إيطاليا ، ملين هذه الصيحات للاشتراك في الحروب الصليبية يتقدمهم كثير من الأمراء مثل جودفري دوق اللورين الأدنى وأخوه بلدوين وبوهند النورماندى الإيطالى وابن أخته تانكرد وريموند كونت تولوز بفرنسا ، وأخذت هذه السيول تنحدر إلى بيزنطة مكونة نحو مائة ألف مقاتل .

وبينا أوروبا تتجمع هذا التجمع الضخم إذا البلاد العربية منقسمة على نفسها ، وإذا هى قد بلغت مدى بعيداً من الضعف والانحلال ، وكان أكثر الشاطى الشامى بيد الفاطميين حكام مصر ، وكانت دولتهم قد أخذت تتردى فى تدهور خطير ، وكان قسم كبير من ديار الشام يتبع السلاجقة حكام العراق وإيران ، وكانوا قد أقبلوا من خراسان منذ أكثر من قرن ومدوا سلطانهم على آسيا الصغرى ،

ولم يلبثوا أن استحدثوا نظام الأتابكة وهو أن يكون مع كل حاكم منهم ليلد أتابك أو بعبارة أخرى قائد يدبر أمر بلده ، وسرعان ما ازداد نفوذ هؤلاء الأتابكة وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين ، وبذلك تفككت أوصال الدولة السلجوقية الضخمة وتفتت قوتها العظيمة .

فلما جاء الصليبيون بجموعهم الحاشدة لم يجدوا أمامهم قوات تبطش بهم فلا السلجوقيون محتفظون بكيانهم القوي القديم الذي أدلوا به بيزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوروبا ، ولا الفاطميون محتفظون بشيء من قوتهم القديمة يقون به هذا الوباء الصليبي . ونزل الصليبيون آسيا الصغرى وأخذوا يستولون على حصون السلجوقيين دون مقاومة تذكر ، وتسلسل بلدوين إلى حوض الفرات الأوسط ، واستولى على الرها ، وسارت بقية السيل إلى الشام فاستولت على أنطاكية بعد مذبحة عظيمة ، وتوالت مذابح الأيدي الآتمة في البلدان والحصون حتى طرابلس . واتجه السيل إلى بيت المقدس وكان بيد مصر ، وجاهدت الحامية وأهلها جهاداً مستميتاً ، حتى لم يبق في القوس مترع ، ودخلها جودفرى وجنوده ، وسرعان : ما أصبح للصليبيين أربع إمارات : الرها بيد بلدوين وأنطاكية بيد طنكرى (تانكرد) وطرابلس بيد ريموند وبيت المقدس بيد جودفرى ، ومات فخلفه أخوه بلدوين ، ففتح عكا وبيروت وصيدا . ولم يبق لمصر في الشاطئ الشامي سوى صور وعسقلان ، وبعد سنوات سقطت صور . وظلت مصر وأتابكة الشام يناوشونهم ، ولم تستطع قواهم المهيبضة أن ترد السيل إلى قراره ، وبلغت القلوب الحناجر . وبينما الظلام يعم المنطقة إذا أتابك عظيم من أتابكة السلاجقة هو عماد الدين زنكي ينتبه

إلى أن الداء يكمن في تقطع البلدان المجاورة للصليبيين شيعاً ، وأنه لن تستأصل شأفهم إلا إذا تجمعت قوى تلك البلدان في قبضة قائد حازم ، تسدّد لهم ضربات قاصمة. ولم يلبث أن ركز لواء سلطانه على الموصل ثم بسطه على كثير من مدن الشام مثل حلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق ، وأخذ يكيّل للصليبيين ضربات قاضية مستولياً على كثير من الحصون ، حتى إذا كانت سنة خمسمائة وتسع وثلاثين استولى على مدينة الرها بعد قتال مرير : وبذلك عا ر هذه الإمارة التي أقامها الصليبيون على الفرات ، وكان لذلك رنة فرح شملت جميع المسلمين يتقدمهم الشعراء الذين أخذوا يشيدون بهذا النصر المين ملوحين بأيديهم في وجوه الصليبيين ، منذرين ومتوعدين على شاكلة قول شاعره ابن القيسراني :

هو السيف لا يُغنيك إلا جلاده وهل طوق الأملاك إلا نجاده
سمت قبلة الإسلام فخرًا بطوله

ولم يك يسمو الدين لولا عماده
فياظفراً عمّ البلاد صلاحه بمن كان قد عمّ البلاد فساده
غداة كان الهام في كل قونس كرائم نبت بالسيف حصاده
فلا مُطلق إلا وشد وثاقه ولا مؤثق إلا وحلّ صيفاده
ولا منبر إلا ترنح عوده ولا مصحف إلا أنار امتداده
فقل للموك الكفر تسليم بعدها ممالكها إن البلاد بلادُه

كذا عن طريق الصبح فلئنته الدجى

فيا طالما غال الظلام امتداده

وابن القيسراني يشيد بالسيف رمز القوة الذى لا يخفى البلاد ولا يصونها سواه . وقد أعز في يوم الرها قبله الدين الحنيف وملأها خيلا وتيها بفضل حامله عماد الدين زنكى الذى أعلى شأن الإسلام ومجده بما حقق من ظفر محاطيان الصليبيين على الفرات ، وهو محو لم يتم إلا بإزهاق نفوسهم وقطع رءوسهم وحصادها حتى لكأما كانت أحكام نبات أينعت وقطفت . وتكاثرت أسرى الصليبيين وأخذتها الأغلال والقيود في حين فكت القيود والأغلال عن كانوا في سجونهم من المسلمين . وإنه ليتهدد ملوك الصليبيين بأن ما حل بالرها سيحل بهم ، فيصحبون بين قتيل وأسير ، وخير لهم أن يلقوا عن يد مستسلمين رادين البلاد إلى أهلها ارتداد الدار إلى صاحبها ومالكها ، وإلا فسيحرق بهم ما حاق بإخوانهم في الرها . وإنه ليهيب بالظلام أن ينحسر عن تلك البلاد وينكشف عن سفوحها ووديانها . حتى تنير عليها أضواء الصباح البهيج . وبينما عماد الدين جاد في حروب الصليبيين إذا يد آئمة تمتد إليه في الظلام لسنة خمسمائة وإحدى وأربعين ، ويبلغ الكتاب أجله . ويقتسم ابناه : غازى ونور الدين إمارته ، ويستقل غازى بالموصل ، ويستقل نور الدين بحلب ويقع عليه عبء جهاد الصليبيين ، ويعاود جوسلين صاحب الرها القديم الحلم بعودتها ويبدد حلمه نور الدين ، ويأخذ في الاستيلاء على كثير من الحصون ، ويجهز صاحب أنطاكية جيشاً جراراً من الصليبيين

لحربه : وتدور عليه وعلى جيشه الدوائر ويسقط في الميدان صريعاً :
وتسيل دماء الباغين أمهراً . ويتعالى تكبير المسلمين وتهليلهم . ويستلهم
ابن القيسراني باثية أبي تمام السالفة في معركة عمورية ، منشداً قصيدة
ملتهبة ، يقول في تضاعيفها :

هذى العزائم لا ما تدعى القُضْبُ
وذى المكارم لاما قالت الكتبُ
أغرّتُ سيوفك بالإفرنج راجنةُ
فؤاد رومية الكبرى لها يَجِبُ
غضبتُ للدين حتى لم يفتك رضا
وكان دين الهدى مرضاته العَضْبُ
والنَّبْلُ كالوَبْلُ هَطَّالٌ وليس له
سوى القِيسِيِّ وأيدٍ فوقها سُحْبُ
فانهض إلى المسجد الأقصى بندي لجب
يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقبُ
وائذنْ لموجك في تطهير ساحله
وإنما أنت بحرٌ لجه لَجِبُ
وهو يشيد بعزائم نور الدين حين نكصت العزائم والهمم من حوله
أما هو فقد مضى يحطم جيوش الصليبيين ، بطلا من أبطال الجلال

والجهاد ، وقد أنزل بالروم صاعقة رجف لها فؤاد رومية دار بابواتهم الذين أغوهم على تلك الحرب الشعواء وما يسفك فيها من دماء . ويقول إن نور الدين غضب للدين الحنيف غضبة ضارية ، فإذا خيله تملأ ساحات الحرب ، والنبل يهطل من سحب الأقواس كأنه مطر منهمر ، ويهيب بنور الدين أن يخلص المسجد الأقصى من أيدي الصليبيين وأن يدفع بأموال جيشه لتطهيره من أدرانهم ، وقد أخذ يبدو للعيان أنه المنقذ المرموق لتطهير البلاد من شرهم المستطير .

وفي هذه الأثناء قدمت الحملة الصليبية الثانية ومعها الملكان كونراد الألماني ولويس السابع الفرنسى ، وقد مزق السلاجقون جيش كونراد فى آسيا الصغرى وفتحوا بجيش لويس السابع ووصلا مع فلول جيشهما إلى بيت المقدس ، ثم ارتحلا إلى غير مأب . ومضى نور الدين يشن الغارات على الصليبيين الشماليين فاتحاً القلاع والحصون ، وأذعنت له دمشق بالطاعة . وكانت عينه مصوّبة نحو مصر وخاصة بعد أن استولى الصليبيون على آخر بلد لها بالشام : عسقلان ، وبعد أن ظهرت منهم نوايا لغزوها ، وكان قد استقر فى نفسه أن تتوحد كل البلدان العربية المحيطة بهم حتى يطوّقوا شمالاً وشرقاً وجنوباً . ولم يلبث ضرغام وشاور أن اقتتلا فى القاهرة على الوزارة وفرغ إليه شاور مستجداً ، فأئجده بجملة على رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الأمور، وتتجسم لهما خيانة شاور واستعانتة بالصليبيين ، ويدخلان مصر وينقلدانا منها . ويقتل شاور ، ويتولى شيركوه الوزارة شهوراً ، ويتوفى فيخلفه صلاح الدين ، وسرعان ما يتوفى الخليفة الفاطمى العاضد ،

فينقل صلاح الدين الخلافة من الفاطميين إلى العباسيين . وتصبح وحدة البلاد العربية المحيطة بالصلبيين حقيقة ماثلة . ولا يلبث نور لدين أن يلبى نداء ربه سنة خمسمائة وتسع وستين فيحمل العبء صلاح الدين ويعيد للبلاد الشامية والمصرية وحدتها . وأخذ ينزل ضرباته بالصلبيين ، وما توفى سنة خمسمائة وثلاث وثمانين حتى يشدد الخناق عليهم فتسقط قلاعهم وحصونهم بيديه واحدة في إثر أخرى . وتلتقى إحدى سراياه في شرقي حيفا بجماعة من الداوية والإستارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين ، وتتصر عليهم السرية انتصاراً حاسماً يلقى فيه قائد الإستارية حتفه ، ويستولى صلاح الدين على مدينة طبرية ، ولا يلبث أن يلتقى بجموع الصليبيين في تل حطّين ، ويلتحم القتال ويحمى الوطيس . وحال الليل بين العسكرين حتى إذا كان اليوم الثاني حمل المسلمون وصاحوا صيحة رجل واحد : الله أكبر ، وألقى الله الرعب في قلوب الصليبيين ، وقتلت منهم مقتلة عظيمة . وأحاط المسلمون بهم من كل جانب يقتلون ويأسرون ، وأخذوا الصليب الأعظم : صليب الصلبوت . وكان فتحاً عظيماً هلك فيه جمهور هذا الجيش الصليبي الضخم ووقع في الأسر قاداته وزعمائه : جاي لوزيجنان صاحب بيت المقدس وأخوه أملاريك وجيرار مقدم الداوية وهنرى صاحب تبين وريجنالد صاحب الكرك والشوبك . وبلغ من كثرة الأسرى والقتلى أنه من كان يشاهد القتلى يظن أنه ليس وراءهم أسرى ، ومن كان يشاهد الأسرى يظن أنه ليس وراءهم قتلى . وبلغ من كثرة الأسرى أن كان الواحد منهم يباع بثلاثة دنانير . ليعمل عبداً مملوكاً . ولم يكن هم صلاح الدين إلا ريجنالد

صاحب الكرك والشوبك إذ كان قد صنع أسطولا في أيلة (العقبة) لغزو مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكاد ينفذ عزمه لولا أن باغته في البحر الأحمر أسطول مصرى قضى على أسطوله . وكان قد وقّع صلحاً مع صلاح الدين ومر به جماعة من المصريين فغدر بهم وقتلهم . ولذلك كله أهدر صلاح الدين دمه وطعنه بنفسه طعنة مصمية . واستولى صلاح الدين عقب هذا الفتح المبين على كثير من مدن فلسطين ولبنان مثل نابلس وقيسارية وحيفا وصيدا وبيروت وبيت جبريل (بئر سبع) ولم يبق في كل هذه الأثناء سوى الكرك والشوبك وصور . وزحف صلاح الدين على بيت المقدس ، وراها بالمنجنيات وضيق على من بها من الصليبيين حتى استسلموا راغمين في شهر رجب سنة خمسائة وثلاث وثمانين ، ودخل صلاح الدين بجيشه إلى المدينة بين التهليل والتكبير والضجيج بالدعاء . ولعل فتحاً لم يظفر من الأدب نثره وشعره ، بما ظفر به هذا الفتح منذ حروب سيف الدولة والمعتصم مع الروم ، إذ كان الصليبيون قد استولوا على القدس منذ تسعين سنة واستئس الناس من عودته ، فلما عاد إليهم شعروا شعوراً عميقاً بأن صلاح الدين وجيشه ردوا إليهم فردوسهم المفقود ، وجاءوا من كل حدب إلى صلاح الدين يتغنون بنصره وبلائه وما فتح الله على يديه وأيدى جيشه في حطين ثم في القدس الشريف ، وللعقاد الأصهباني سينية رائعة أنشدها صلاح الدين يذكر فيها هذا الفتح الجليل ، وفيها يقول :

حططت على حطين قدر ملوكهم

ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا

بواقعةٍ رجت بها الأرض جيشهم
 دماراً كما بُستَ جبالهم بساً
 بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم
 ولم ترض أرض أن تكون لهم رمساً
 سبايا بلاد الله مملوءةً بها
 وقد شريتُ بحسناً وقد عرضت نَحساً
 يطاف بها الأسواق لا راغبٌ لها

لكثرتها كم كثرةٍ توجب الوكسا
 والعماد بصور ما نزل بأمرء الصليبيين من ذل وهوان في يوم حطين
 وكيف مزقت جموعهم كل ممزق ، وزلزل جيشهم زلزالاً شديداً ،
 بل لكأنما فتنت جبالهم تفتيتاً ، وقد تناثرت جيشهم وأشلائهم وأصبحت
 مادية كبيرة للذئاب ، وكأنما لم ترض أرض أن ينزلوا نراها وتخط لهم
 قبور فيها . وقد تكاثرت سباياهم ، حتى ليعرضها النحاسون بثمن بحس
 لم يسبق له مثيل ، وإنهم ليطوفون بها الأسواق والناس معرضون عنها
 لكثرتها كثرة من شأنها أن توجب الوكس والكساد . ويقول ابن سناء
 الملك شاعر مصر لعهد صلاح الدين مهنتاً والبهجة تملأ صدره :

قمت في ظلمة الكريهة كالبد ر سناء والنور يسطع وهنأ
 لم تلاق الجيوش منهم ولك نك لاقيتهم بلاداً ومُدنا

وتصيّدتهم بحلقة صيد تجمع الليث والغزال الأغنى
 وجرت منهم الدماء بحاراً فجرت فوقها الجزائر سفناً
 وحوى الأسر كل ملك يظن الـ دهر يفنى وملكه ليس يفنى
 وتهادت عرائس الملك تجلى وثمار الأملاك منهن تجنى
 قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً وحويت الآفاق سهلاً وحزناً

وابن سناء الملك يستهل الأبيات بأن صلاح الدين يبلغ من بطولته وشجاعته أن ترى وجهه مهللاً بالنصر مستبشراً كأنه البدر يسطع في دجنة الظلام، وهو ينزل ضرباته المتلاحقة لاعلى جيوش الصليبيين فحسب ، بل على مدنهم وحصونهم ، فإذا هى تفتح له أبوابها ، ويتصوره وفى يده أسراهم من الشجعان والنساء كأنه صائد ماهر يصيدهم بشباكه ، ويتعرون فيها لا يستطيعون فكاكاً ولا خلاصاً . أما دماء قتلاهم فقد استحالت بحاراً وأنهاراً تملو فيها جثثهم وكأنها جزائر وسفن متحركة ، وقد استسلم ملوكهم خاسئين مدحورين ، ولم يغن ملكهم عنهم شيئاً . وأقبلت على صلاح الدين بلدان الشام تهادى إليه وكأنها عرائس فى جلوة الفرح البهيج ، وإن ثمار الأملاك لتلتقط منها وتقتطف اقتطافاً ، وإن صلاح الدين لخليق بما ملك من شرق البلاد وغربها وحزونها وسهولها ، ملكاً تصفق له البلاد طرباً وفرحاً ، ويقول الحسن الجوينى البغدادي نزيل مصر :

هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما

لها سوى الشكر بالأفعال أثمان

أَضَحَتْ مَلُوكَ الْفَرَنْجِ الصَّيْدِ فِي يَدِهِ
صَيْدًا وَمَا ضَعُفُوا يَوْمًا وَمَا هَانُوا
تَسْعُونَ عَامًا بِلَادَ اللَّهِ تَصْرُخُ وَاللَّهُ
لِلْإِسْلَامِ أَنْصَارُهُ صُمْ وَعَمِيَانُ
لِلنَّاصِرِ ادْخِرْتُ هَذِي الْفَتْوحَ وَمَا
سَمَتْ لَهُمْ هَمُّ الْأَمْلَاقِ مَذْكَانُوا
لَوْ أَنَّ ذَا الْفَتْحِ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ لَقَدْ
تَنْزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ وَقُرْآنُ
فَاللَّهُ يَبْقِيكَ لِلْإِسْلَامِ تَحْرُسُهُ
مَنْ أَنْ يَضَامَ وَيَلْقَى وَهُوَ حَيْرَانُ

والقصيدة كلها إشادة بالفتح وبصلاح الدين على هذا النمط ، وهو يقول إن هذا الفتح خليق بأن يكون كفتوح الأنبياء الملهمين ، وإن الثناء عليه ليعلو على الأقوال والألفاظ ، وإنه خليق بأن يدفع إلى أفعال عظيمة تماثله ، ويقول إنه أسر ملوك الفرنج العاتين ، الذين طالما شتمخوا بشجاعتهم حتى التقوا به ، فإذا هو يعصف بهم عصفاً شديداً ، بعد أن ظلوا سادرين في عتوهم تسعين عاماً ، والقدس وغيرها من القلاع والحصون تصرخ وتستغيث ولا مغيث ولا مجير ، ويقول إن هذه الفتوح نعمة ادخرها الزمان لصلاح الدين ، ولم يكن ملك ولا أمير قبله تتطاول إليها همته ، ولو أن فتح القدس حدث في عصر الرسالة

لنزلت فيه آيات قرآنية تشيد به وتمجده تمجيداً عظيماً ، ويدعو الله أن يقيه للإسلام حارساً وحامياً له من أن يلحقه أى ضيم أو هوان .

ومضى صلاح الدين فى جهاده فاستسلمت له الكرك والشوبك ، ولم يبق للصليبيين سوى صور وطرابلس وأنطاكية . وفى هذه الأثناء كان البابا يواصل استصراخه : فتكونت الحملة الصليبية الثالثة بقيادة الملك فرديريك الألماني ، وفيليب ملك فرنسا ، وريتشارد ملك إنجلترا . واتخذ فرديريك طريق البر إلى بيزنطة ونزل آسيا الصغرى بجموعه ، وبينما هو يعبر نهراً فيها ساجحاً ابتلعه اليم وتفشت الأوبئة فيمن معه ، وقدمت منهم فلول إلى إنطاكية ثم طرابلس . واتخذ فيليب وريتشارد طريق البحر المتوسط ونزلا فى صور ، ويشتركان فى حصار عكا وتعود إلى أيدي الصليبيين ثانية كما تعود حيفا ويافا ، ورأى ريتشارد أن الاستيلاء على بيت المقدس الذى جاءت من أجله الحملة أضعفأت أحلام ، فطلب من صلاح الدين الصلح ووضع أوزار الحرب لمدة ثلاث سنوات ، ولم ير صلاح الدين بأساً فى ذلك لإعداداً لمعركة فاصلة يقضى فيها على الصليبيين قضاء مبرماً ، ولم يلبث ريتشارد ، وكان قد سبقه فيليب ، أن رحل عن البلاد إلى غير رجعة . وما هى إلا أشهر معدودة حتى يلبى صلاح الدين ، وكان بدمشق ، داعى ربه فى شهر صفر لسنة خمسماية وتسع وثمانين ، ويصلى عليه الناس أرسالاً ، وهم يبكونه بدموع غزار . وكان قد وزع دولته الواسعة بين أبنائه وعمهم العادل ، وأخذ العادل يعمل على إعادة توحيدها ثانية ؛ ولا نصل إلى سنة ٥٩٦ حتى تعود إليها وحدتها تحت لوائه ، غير أنه عاد فقسمها بين أولاده ،



إذ جعل مصر لابنه الكامل محمد ودمشق والديار الشامية لابنه المعظم عيسى ، أما البلاد الشرقية حتى نهر الفرات فجعلها لابنه الأشرف موسى وبذلك ملك هو وأبناؤه البلاد ودانت لهم العباد. ونخت حدة الحروب الصليبية ، إذ تحولت إلى مناوشات إلا قليلا ، وجاءت في أثناء ذلك إمدادات من أوروبا ولكنها لم تصنع شيئا ، حتى إذا كانت سنة ستماية وخمس عشرة أعد الصليبيون ، بتقديمهم صاحب عكا ، أسطولا ضخماً نزلوا به في دمياط ، ووضعوا في أهلها السيف قتلا وأسرأ ، وعلم السلطان الكامل فاستنفر أخويه المعظم عيسى والأشرف موسى للجهاد وبادر لقتالهم ، واستقرت أقدامهم بدمياط نحو ثلاث سنين ، حاولوا بعدها الوصول إلى المنصورة ، وكان فيهم ثمانمائة من الخيالة غير آلاف الرجالة ، وأحدقت بهم عساكر الكامل وأخويه موسى وعيسى ، وعصف بأسطولهم أسطول المسلمين ومنعت عنهم المؤن ، وأخذت الجيوش المصرية والشامية والموصلية تفتك بهم فتكاً ذريعاً ، مما جعلهم يلقون عن يديهم صاغرون وخرجوا إلى البحر وما وراءه خاسئين ، وصور ذلك البهاء زهير شاعر مصر لعهد السلطان الكامل ، إذ يقول له من قصيدة طويلة :

بك اهتزَّ عِطْفُ الدينِ في حُلِّ النَّصْرِ
ورُدَّتْ على أعقابها ملة الكفرِ
وما فرحت مصرٌ بذلك وحدها
لقد فرحت بغداد أكثر من مصر

فمَنْ مَبْلَغُ هَذَا الْهِنَاءِ بِمَكَّةَ
 وَيَثْرِبَ ، يَنْهِيهِ إِلَى صَاحِبِ الْقَبْرِ
 سَدَدَتْ سَبِيلَ الْبَحْرِ وَالْبَرِّ عَنْهُمْ
 بِسَابِحَةٍ دُهِمٍ وَسَانِحَةٍ غُرٍّ
 أَسَاطِيلَ لَيْسَتْ فِي أَسَاطِيرِ مَنْ مَضَى
 بِكُلِّ غَرَابٍ رَاحَ أَفْتَكُ مِنْ صَقَرٍ
 وَبَاتَتْ جُنُودَ اللَّهِ فَوْقَ ضَوَامِرٍ
 بِأَوْضَاحِهَا تَغْنِي السَّرَاةَ عَنِ الْفَجْرِ
 وَرَوَّيْتَ مِنْهُمْ ظَائِمِي الْبَيْضِ وَالْقَنَا
 وَأَشْبَعْتَ مِنْهُمْ طَاوِيَّ الذَّنْبِ وَالنَّسْرِ
 وَلَا زَلْتَ حَتَّى أَيْدِ اللَّهِ خَزَبَهُ
 وَأَشْرَقَ وَجْهَ الْأَرْضِ جَذْلَانَ بِالنَّصْرِ

والبهاء زهير يصور تهال الدين الخفيف بظفر السلطان الكامل
 ودحره للصليبيين وانتكاسهم على أعقابهم ، ويقول لأنها فرحة لم تسعد بها
 مصر حدها ، بل سعد بها العالم الإسلامي جميعه في بغداد وفي منازل
 الوحى بمكة والمدينة ، وإنه لحرى أن يهنا به الرسول عليه السلام ، فقد
 حمى السلطان بيضة الإسلام من الصليبيين وطهره في دمياط منهم
 ومن أوزارهم . ويقول إنه طوق العدو بجرأ وبرأ ، فحرق أسطول المسلمين

أسطوله، وسدت مراكبه عليهم الطريق البحري كما سدت الخيل الغرطريقهم البري، وإن غررها وحجوها البيضاء لتضيء حتى لتغني السارين ليلاً عن ضياء الفجر. وقد أطفأ بهم غلة السيوف والرماح وتعطشها إلى دماهم كما أشبع بجثثهم وأشلائهم جياح الذئاب والنسور والعقبان. وظل ينازلهم حتى استخلص منهم دمياط وحتى ولوا على وجوههم مقهورين إذ أيد الله بنصره المؤمنين وكتب الخذلان والحسران على أعدائهم الصليبيين. ويصور ابن عنين شاعر دمشق هذا الجيش اللجب للصليبيين وما سُدَّ إليه من ضربات المسلمين التي جعلته يركع على قدميه منهاراً ويقارن بين صنيع السلطان الكامل والمسلمين بأبراهم إذ عفوا عنهم وردوا إليهم حرياتهم وبين ما كان الصليبيون يرتكبون في دمياط. وفي مدن الشام وحصونه من الذبح والتقتيل والتحريق، وإنه ليقول مفتخراً بهذا النصر العظيم:

سَلُوا صَهَوَاتِ الْخَيْلِ يَوْمَ الْوَعَى عَنَا

- إِذَا جُهِلَتْ آيَاتُنَا - وَالْقَنَا اللَّدْنَا

غَدَاةَ لَقِينَا دُونَ دَمِيَاطَ جَحْفَلًا

مَنْ الرُّومَ لَا يُحْصَى يَقِينًا وَلَا ظَنًّا

فَمَا بَرَحَتْ سُمُرُ الرَّمَا حَ تَنُوشُهُمْ

بِأَطْرَافِهَا حَتَّى اسْتَجَارُوا بِنَا مِنَّا

سقيناهم كُأْساً نَفَتْ عَنْهُمْ الْكَرَى

وكيف ينام الليل من فقد الأمانة

لقوا الموت من زرق الأسنّة أحمرّاً

فألّقوا بأيديهم إلينا فأحسنّا

وابن عنين يفاخر في أول هذه الأبيات ببسالة العرب التي تعرفها أدوات الحرب من الخيل والرماح اللدن اللينة النافذة يوم التقى الجيشان : الجيش العربي وجيش الروم الذي لا يكاد يحصى ، وقد أسرع شجعان العرب ينوشونهم ويقتلونهم بأطراف الرماح ويديقونهم بأسهم كُأْساً مريرة يتجرعون منها ما ينفض عن عيونهم الكرى ليلاً ، وهل ينام من يتقلب على أشواك الخوف والرعب . وما زال الجيش العربي يفتك بهم فتكاً ذريعاً ، حتى استسلموا صاغرين من هول الحرب وما سقنا إليهم فيها من الموت الأحمر الخفيف .

وكانت هذه الحملة الخاسرة درساً للصليبيين ، فظلوا سنين متعاقبة لا يمر بخواطيرهم أن يتجمعوا في حملة جديدة ، حتى إذا كانت أواخر سنة ستمائة وسبع وأربعين وسوست إليهم شياطينهم أن يعودوا إلى غزو دمياط والديار المصرية وما أن ألم أسطوهم بها حتى خرج منها أهلها وتركوها خاوية على عروشها . وكان قائد الحملة لويس التاسع ملك فرنسا فتقدم يجموعه إلى المنصورة ، والتقى بجيش توران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية ، وكان غائباً في الشام ، وطال القتال بين

الفرقيين شهراً ، وضعف حال الصليبيين لانقطاع المؤن عنهم ووقوع وباء في خيلهم ، وعزم لويس على الرجوع إلى دمياط ، وتصادف أن وصل توران شاه في أول شهر الحرم سنة ثمان وأربعين ، وعلم بمقصد لويس ، فداهمه هو وجيشه ليلاً ، وأخذ جنوده يتخطفونهم قتلاً وأسراً ، وغنموا منهم ما لا يوصف كما يقول المؤرخون وظفر أسطول المسلمين بأسطوهم ، وأسر لويس التاسع في جماعة فرسانه في منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط ، وأنزل في مركب بالنيل لتقله إلى المنصورة ، وأحدقت به مراكب المسلمين تُضرب فيها الصنوج والطبول ، وفي البر الشرقى الجيش المصرى يسير في صباح وضجيج ، وفي البر الغربى الفلاحون والعامّة في لهو وسرور بهذا الفتح العظيم ، والأسرى تقاد في الحبال وفيهم أمراء وكونتات وأشراف . وأحصيت عدة الأسرى فكانوا نيفاً وعشرين ألفاً حبسوا بالمنصورة ، وخصصت بسجن لويس التاسع دار من دور الدولة تعرف بدار ابن لقمان ، وهى الدار التى كان ينزل فيها فخر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء كلما جاء إلى المنصورة في عمل يتعلق بوظيفته ، وعين للويس حارس يحفظه هو الطواشى صبيح . ولم يلبث أن طلب الدخول في الصلح والعودة إلى بلاده على أن يسلم دمياط ويسلم معها خمسمائة ألف دينار ، وخرج على وجهه مع بقايا جيشه خاسئاً مدحوراً . ومضت نحو عشر سنوات ، فإذا نفسه محدثه أن يعاود الكرة للهجوم على البلاد الإسلامية وينزل تونس ، وترد إلى مصر أخبار بأنه إنما يريد السير إليها ، ولا يلبث ابن مطروح أحد شعراء مصر التائبين حينئذ أن يهدده ويتوعده ، وينصب أمام عينيه سجنه بدار ابن لقمان

وما ينتظره من سوء المصير ، يقول هازئاً به ساخراً منه سخريه لاذعة :

مقالَ صدقٍ من قَتولِ فَصِيحٍ	قُلْ للفرنسيِّس إذا جئته
من قَتلِ عُبَادِ يسوعَ المسيحِ	أجرِك الله على ما جرى
تحسب أن الزمرياطبلُ رِيح	أتيتَ مصر تبتغي مُلكها
ضاق به عن ناظريك الفسِيح	فساقك الحَيْنُ إلى أذهم
بحسن تدبيرك بطن الضريح	وكلَّ أصحابك أودعتهم
إلا قَتيلٌ أو أسيرٌ جريح	خمسون ألفاً لا يرى منهم
لعل عيسى منكم يستريح	وفقك الله لأمثالها
فَرُبُّ غِشٍّ قد أتى من نصيح	إن كان بابائكم بذرا راضياً
لأخذي ثأراً أو لقصدِ صريح	وقلْ لهم إن أضمرنا عودةً
والقيدُ باقٍ والطواشي صَبِيح	دارُ ابن لقمانَ على حالها

وهو يستهل تقريره لالويس التاسع بأنه مرسل له بكلمات صادقة ، وتتوالى الكلمات ، وكأنها أفاع تطوق عنقه ، وأول أفعى دعاؤه له بحسن الأجر والثواب على ما أنزله بعباد المسيح من الصليبيين أمثاله من القتل والذبح وقطع الرقاب . والأفعى الثانية تمكمه بما أراد من الاستيلاء على مصر ، يحسب أن ذلك قاب قوسين منه ، فإذا هوزب من المستحيلات دونه حزن الإعتاق والإلقاء في غياهب السجون مع الأغلال والقيود

على نحو ما ساقه الموت إلى سلاسل محبسه في دار ابن لقمان حيث ضاقت عليه آفاق الأرض بما رحبت ، وتلك هي الأفعى الثالثة . والأفعى الرابعة تنكيله بأصحابه إذ ساقهم بحسن تدبيره ، بل بقبحه ، إلى القبور والسجون زرافات ووحداً ، حتى ليبلغون خمسين ألفاً . ويحيط عنقه بأفعى فظيعة من التهكم ، إذ يدعو له أن يوقفه الله إلى أمثال تلك الحملة حتى يستريح عيسى من جماعات الصليبيين ، ويقول له إن كان البابا راضياً عن حملاتكم فقد غشكم وغبنكم ورب غبن يسوقه نصيح . ويرفع أمام عينيه دار ابن لقمان وقيدته وحارسه الأمين . ويتوجه إلى الملك الصليبي بالخطاب شاعر تونسي قائلاً :

يا فرنسيس هذه أخت مصير فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير

وكان هذا فألاً حسناً ، إذ مات لويس على أسوار تونس وهو محاصر لها ، فارتد جيشه على أعقابه كسيراً دون حرب أو قتال . وكأنا ما خابت جميع آمال الصليبيين ، فلم يعودوا يفكرون في حملات ولا في إغارات . وما نصل إلى سنة ستائة وثمان وخمسين حتى يستنقذ منهم الظاهر بيبرس إنطاكية ويمضى في استنقاذ كثير من البلدان والحصون مثل يافا والمجدل وطرطوس . ومضى في إثره السلطان المنصور قلاوون يستنزل الصليبيين من كثير من حصون الشام ، وافتتح طرابلس في سنة ستائة وثمان وثمانين ، واستولى على كثير من القلاع المجاورة لها ، وخلفه ابنه خليل فاستولى على صور وصيدا . وسقطت عكا آخر معاقل الصليبيين

في سنة ستائة وتسعين بعد أن لقتهم جيوشنا وأبطلها درساً لم ينسوه ، وبعد أن بذلوا ألوف الضحايا بل مئات الألوف في غير طائل ، وبعد أن تحملوا من الشقاء والتعاسة ما لا يدرك ولا يوصف . وكان طبعياً أن تتكاثر أناشيد الانتصار بعد سقوط عكا ، وأن يتهج الشعراء بالنصر مع المبهجين من مثل الشهاب محمود ، وله من قصيدة طويلة ينهئ فيها السلطان الأشرف خليل بهذا الفتح العظيم :

الحمد لله زالت دولة الصُّلبِ وعزَّ بالسيف دينُ المصطفى العربي
 ما بعد عكا ، وقد هُدت قواعدها في البحر ، للشرك عند البر من أرب
 كانت تخيلها آمالنا فترى أن التفكر فيها أعجب العجب
 سوران : بروي بحر حول ساحتها دارا ، وأدناها أنأى من القطب
 مصفحٌ بصفاحٍ حولها أكمٌ من الرماح وأبراجٌ من اليلب
 مثل الغمام تهدي من صواعقها

بالنبل أضعاف ما يهدي من السحب
 ففاجأها جنود الله يقدمها غضبان لله ، لا للملك والنشب
 فأصبحت وهي في بحرين ماثلة

ما بين مضطرم ناراً ومضطرب
 تستموها فلم يترك تسئما في ذلك الأفق برجاً غير منقلب

والشاعر يحمد الله ويثني على آلائه ونعمه ، فقد انحوت من الأراضي المقدسة دولة الصليبيين ، وعزَّ الدين الحنيف ، وإنه لعزَّ ما فوقه عزز فقد سقطت عكا ، وهدمت قواعدها الملاصقة للبحر ، كما هدمت أسوارها الملاصقة للبر ، وهو ما يفوق كل خيال ، إذ كان يحيط بها سوران يستديران من حولها فلا يستطيع أحد إليها نفوذاً ، سور البر وسور البحر المصعدان في السماء حتى ليظن من يراها أنهما أبعد من القطب منالا ، وعلى كل منهما صفائح السلاح وآكام الرماح وأبراج من اليب أو التروس تحمي وتدافع وترسل النبل وصواعقه وكأنها غمام مطرة ترعد وتبرق بشعل الموت وسهامه . ويقول الشهاب إنه هاجمها بجيشه طلباً للثواب لا مال ولا الملك رقعة من الأرض ، وحاصرها بحران : يجرها المضطرب بأهواجه وبحر السلطان خليل المضطرب بسيوفه ورماحه ونباله ، وقد علا جند الله أسوارها وقلبوا بروجها وجعلوا عاليها سافلها .

ويذكر الشهاب في القصيدة نار المجانيق ، ويقول إنها كانت ناراً عظيمة تغلغت في البروج وتعالَت في أركان السماء علواً أخذ كل ما كان يعتلج في صدر الدين الحنيف من كرب وغصص . وما زال الأشرف وجيشه يقتل في الصليبيين ويأسر ، ولم يفلت منهم إلا قليل ركبوا البحر المتوسط ، ورجعوا إلى أوطانهم ليحدثوا أهلها بأخبار تلك الواقعة وكيف كانت مجزرة للصليبيين قضت عليهم قضاء مبرماً حتى كأنهم لم يكونوا شيئاً مذكوراً .

وحتى الآن لم نتحدث عن الحروب المغولية ، ومعروف أن العلوفان المغولي أخذ يمتد من الصين لسنة ستمائة وثمان عشرة متجهاً غرباً ،

مكتسحاً أمامه ، بقيادة جنكيزخان ، كل ما يعترضه من جيوش ودول وبلدان ، فلا أمراء التركستان ، ولا أمراء خوارزم وإيران استطاعوا أن يصدوا تياره أو حتى يقفوه قليلاً ، فالطوفان كان جارفاً عاتياً ، ومات جنكيزخان لسنة ستائة وأربع وعشرين وخلفه أبنائه يفتحون بقية المدن في إيران ومدن القوقاز وحصونها ، وكلما ألما بمحصن سلم حرسه مفتاحه لهم أو اقتحموه اقتحاماً . وامتد الطوفان بقيادة هولوكوخفيد جنكيزخان إلى العراق ، وحدثت الطامة الكبرى إذ سقطت بغداد عاصمة الخلافة العباسية لسنة ستائة وست وخمسين ، ويقال إنه استمر فيها القتل وسفك الدماء بضعة وثلاثين يوماً ، وإنه بلغ عدد من قتلهم المغول أو التتار ثمانمائة ألف أو يزيدون . ومضى الطوفان يكتسح بلاد العراق بلدة إثر أخرى ، واتجه إلى الشام فاستسلمت له حلب ، وتلتها البلاد الشامية تسلم مفاتيحها وأقفالها للتتار ، وحسب الناس كأن شيئاً لا يمكن أن يردهم عن مصر وما وراءها من بلاد المغرب ، وكانت مصر حينئذ تنزع العالم العربي في حربه مع الصليبيين ، وتوشك أن تقضى عليهم القضاء الأخير ، فكان طبيعياً أن تعرف خطورة الموقف وأن تستعد لكبح جماح هذا الطوفان وصدّه لأنها فحسب ، بل أيضاً عن البلاد الشقيقة الشامية والعراقية ، ورده إلى مقره ومصدره . وخرجت من مصر الجحافل المصرية لسنة ستائة وثمان وخمسين ، يقودها السلطان قطز وظهيره بيبرس البندقدارى . وعلم المغول بخروج تلك الجحافل ، فأعدوا لها ما استطاعوا من قوة ، والتقى الجيشان الضخمان في عين جالوت بفلسطين بين بيسان ونابلس ، واقتتلا قتالا عنيفاً ، استمر فيه واستبسلا

حتى كتب الله النصر للمسلمين ، وانكسر التتار ، وولوا الأدبار ، بعد أن قتل المصريون والشاميون منهم مقتلة عظيمة ، وقتل قائدهم كتبغا ، واعتصمت منهم طائفة بتل مجاور لمكان الموقعة ، فأحدقت بهم العساكر وأفنؤهم قتلاً . وتبع بيبرس في جماعة من الشجعان والفرسان فلوهم المهزومة إلى أطراف البلاد يقتل فيهم . وفتحت البلاد الشامية أبوابها للجيش المنصور ، وتعقبهم بيبرس حتى حلب ، ووصل السلطان قطز دمشق مؤيداً منصوراً واستقبله أهلها استقبالا حافلا ، وأخذوا ينثرون عليه كثيراً من أشعارهم وأناشيدهم .

والبطل الحقيقي لهذه المعركة هو بيبرس البندقدارى ، الذي أبلى فيها بلاء حسناً ، ومضى وراء التتار المهزومين حتى كسح سيلهم من الشام جميعه ، حتى أبوابه العليا في حلب ، وبذلك انحسر طوفانهم وسيولهم . وقد ولي سلطنة مصر والشام في نفس العام ، وعهده يعد من أزهى عهود المماليك ، وقد تلقب بالسلطان الظاهر ، ورأينا آنفاً حملاته على الصليبيين وتوجيهه إليهم ضربات قاصمة . أما التتار فقد كان دائماً لهم بالمرصاد ، ووافته الأنباء في سنة ستائة وإحدى وسبعين بأنهم يعدون العدة لغزو الشام ، فزحف إليهم بجيش جرار ، وعرف أنهم يتجمعون شرق نهر الفرات ، فخاضة إليهم بعسكره ، وأنزل بهم هزيمة ساحقة كهزيمة عين جالوت ، وتوافد عليه الشعراء يهنتونه بهذا النصر المبين مشيدين بجرأته وجرأة جيشه في خوض بلج الفرات وخوض بلج دماء الأعداء إلى الظفر على شاكلة قول الشهاب محمود :

سِرُّ حَيْثُ شِئْتَ لَكَ الْمُهَيْمِنُ جَارُ
 وَاحْكُمُ فِطْوَعٍ مَرَادَكَ الْأَقْدَارُ
 لَمْ يَبْقِ لِلدِّينِ الَّذِي أَظْهَرْتَهُ
 يَارَكُنْهُ عِنْدَ الْأَعَادَى ثَارُ
 لَمَّا تَرَاقَصَتِ الرَّعُوسُ وَحُرِّكَتْ
 مِنْ مَطْرِبَاتِ قِسِيَّكَ الْأَوْتَارُ
 رَشَّتْ دَمَاوَهُمُ الصَّعِيدَ فَلَمْ يَطِرْ
 مِنْهُمْ عَلَى الْجَيْشِ السَّعِيدِ غِبَارُ
 شَكَرْتَ مَسَاعِيكَ الْمَعَاقِلُ وَالْوَرَى
 وَالتُّرْبُ وَالْآسَادُ وَالْأَطْيَارُ

والشهاب محمود يهني الظاهر بيبرس بما يدل عليه هذا النصر العظيم من حماية الله له وخضوع المقادير ، تصدع بكل ما يشاء ويريد ، وكأنها مسخرة له تسخيراً ، ويقول إنه أظهر الدين الحنيف وأعزه ورفع رأسه عالياً بما حقق له من إدراك ثأره عند التتار ، ويصور جرأته وجرأة جيشه الجرار . فبمجرد أن تراءى العدو على الشاطئ الشرقي للفرات اقتحمه إليه ، واقتحمه معه جيشه ، وإذا الفرات يتقطع فرقاً ، وكل فريق كأنه طود ، وما الطود والأطواد إلا جيش السلطان الظاهر الذي سرعان ما اشتبك مع التتار ، وأخذ ينحر فيهم كالحراف حتى جرت

سيول دماهم على الأرض ، فكنت لا ترى غباراً تثيره الخيل ، إنما ترى دماء مسفوحة تغوص فيها . وإن كل شيء ليشكر ببيرس ومساغيه وأعماله الجليلة ، تشكره الحصون على ما أحاطها به من منعة ، ويشكره الناس لحمايتهم والدفاع عنهم، ويشكره التراب لما سقاه من دماء الأعداء ، وتشكره الأسد والطير لما أطعمها من جثث التتار وأشلائهم المتناثرة.

وما إن نشرف على أواسط العقد الأخير من القرن السابع الهجري حتى يعتنق الإسلام غازان حفيدهولاكو هو وجنوده، ويكون ذلك إيذاناً بانتهاء الصراع بين البلاد الإسلامية والمغول، إلا مناوشات وغارات من حين لآخر. وبذلك يصبح الظاهر ببيرس بطل الحروب التي خاضتها مصر والشام ضد المغول، وكان له أيضاً دوره، كما أسلفنا، في الحروب الصليبية. وكان بحق سلطاناً شجاعاً مقداماً وفارساً غازياً مجاهداً في سبيل الله مرابطاً بالثغور سريع الحركة، يقود الجيوش ويقتحم المعارك بنفسه مبادراً إلى حوماتها وساحاتها المضطربة، ولعله لذلك اتخذ القصاص من بعده مادة لسيرة تعرف باسمه، وهي قصة طويلة تصور بطولته في معاركه وحروبه كما تصور فروسيته وشيمه الرفيعة وخاصة شيمة التسامح والنفوس الأعداء حين يقعون في قبضته، وأيضاً فإنها تصور نخوته ومروته وإقدامه وجرأته.

والسيرة تمتلئ بمغامرات وخوارق كثيرة وكأنها سيرة البطل العربي في الحروب الصليبية والمغولية جميعاً وكل ما نهض به في هذه الحروب من ضروب بسالة خارقة وكل ما اتسم به فيها من خصال خلقية كريمة.

في معارك التحرير

ظلت البطولة العربية تضطرم في معارك العرب مع الغرب على مدار التاريخ ، اضطرت منذ الفتح الإسلامية في معاركهم مع البيزنطيين ، وازداد اضطرامها حدة وقوة في معاركهم مع الصليبيين ، وسقطت منها شعل قوية في معاركهم بالأندلس مع الإسبان . ثم أخذ يتراكم عليها رماد ثقيل منذ احتل العثمانيون البلاد العربية في القرن السادس عشر الميلادي . وما يكاد يشرف القرن الثامن عشر على نهايته حتى يغزو الفرنسيون مصر بقيادة نابليون بونابرت ، ويتضح للمصريين في جلاء ضعف العثمانيين وتابعهم من المماليك ، إذ لم يستطيعوا الوقوف في وجه الفرنسيين ، وأخذت جذوة الشعور القومي العربي تنقد من جديد ، فضى المصريون يصدرون عنها في مقاومة الفرنسيين المغيرين حتى اضطروا إلى مغادرة مصر مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه . ونهت الحملة مصر إلى ما كانت ترزح فيه من تخلف لا في المجال العسكري فحسب بل أيضاً في المجالين العلمي والسياسي ، واندفعت في نهضة علمية كبيرة ، مؤسسة لمدارس مختلفة حربية وصناعية وهندسية وطبية ، ومستقدمة طائفة من العلماء الأوربيين ، ومرسلة البعث للتخصص في مجالات العلوم المتنوعة . وفي هذه الأثناء أخذت البطولة

المصرية العربية تجمع تحت لوائها الجزيرة العربية والشام والسودان ، وكأنها تريد أن ترد إلى الديار العربية وحدثها القديمة ، غير أن الغرب كان لها بالمرصاد ، فأرغمها في سنة ١٨٤٠ على أن يتحسر لوائها عن الشام والجزيرة العربية ، أما مصر فتظل ولاية عثمانية ، تتولاها أسرة محمد علي ، وليس من حقها بأى وجه أن يتجاوز جيشها ثمانية عشر ألف جندي إلا بإذن من السلطان العثماني ، وعليها أن تخضع لما فرضه العثمانيون في دولتهم للأوروبيين من امتيازات .

ومنذ أخفقت حملة نابليون على مصر كانت فرنسا تفكر في قطر عربي آخر تحتله وتعتصر ثماره ، وسرعان ما نزل جيشها الجزائر لسنة ١٨٣٠ مجدداً الحملة الفرنسية على مصر ، بل مجدداً الروح الصليبية الآتمة ، مستخدماً كل ضرب من ضروب العنف والبطش ، وقاومت الجزائر مقاومة باسلة امتدت سبعة عشر عاماً ، وكان الذي سعرها وأذكى نارها البطل المغوار عبد القادر الجزائري وقد بايعه الشعب أميراً له وزعياً وقائداً عسكرياً سنة ١٨٣٢ ، وتجمع الشباب وأولو العزم من حوله ، وأخذ ينازل الفرنسيين وينزل بهم ضربات قاصمة . وطال أمد المعارك ، وهي أولى معارك التحرير العربية ، وقد مضى العرب الجزائريون فيها تحت لواء الأمير يعصفون بالعدو وجنوده ورضاصه ومدافعه ، غير مبالين بالموت ، بل لأنهم يستغذون به في سبيل إنقاذ وطنهم وتحريره من المستعمر الغاشم ، بل لقد كانت لهم مواقع عظيمة دقوا فيها أعناقهم دقاً ، وخاصة في خندق النطاح الأولي وخندق النطاح الثانية وفي فتح تلمسان واستردادها من أيدي الأعداء . وكم كابدت

الجزائر في هذه المعارك الطاحنة ، وكم صلى أهلها من قتل وتعذيب ،
 والمجاهدون الأحرار صامدون من وراء بطلم ينكرون بالعدو تنكيلا شديداً
 وما زالت تتوالى عليه الإمدادات ، حتى تغلبت قوى الشر والظلم والبغى
 والعدوان لسنة ١٨٤٧ بعد نضال مرير. وتسكن المقاومة بعد الجهاد العظيم ،
 ويستسلم الليث المحصور وينبئ إلى فرنسا ، ثم يفرج عنه بعد سنوات ، فينتقل
 تركيا ثم دمشق والشام . وكان شاعراً ، كما كان فارساً مقداماً ، فتغنى
 بالفروسية وبالبطولة صارخاً في أمته وجنوده حتى يقتحموا معه بلحج
 الحرب وأعاصيرها الجاحمة مصوراً لهم بسالته وشجاعته الحربية بمثل قوله
 مخاطباً زوجته :

إذا ما لقيت الخيل إني لأولُّ
 وإن جال أ صجاني فإني لهم تالٍ
 وبني تتقى يوم الطعان فوارسي
 تخالينهم في الحرب أمثال أشبالٍ
 وأبذل يوم الرُّوع نفساً كريمةً
 على أنها في السلم أغلى من الغالي
 وعنى سلى جنس الفرنسييس تعلمي
 بأن مناياهم بسيني وعَسالي

وهو يصور نفسه فارساً يتقدم الفرسان في العراك والنزال . حتى أنهم
 ليلوذون به مع ما أوتوه من قوة كقوة الليوث الكواسر : وإنه ليحمس

الخيل حين تشتكى بأصواتها الخفية من كثرة ما يأخذها من السهام والنصال والرصاص ، حائثاً لها أن تصبر صبره في المآزق الكريهة . ويعلن إعلاناً أنه يضحى بنفسه الغالية من أجل وطنه حين يحمي وطيس الحرب ، لأنها أنفس ما يملك وهو يبذلها لأمنه راضياً . ويتجه إلى زوجته مفاخرأ بما أبلى في حرب الفرنسيين ، فإنها حين تسأل عن شأنه في معاركه التي يخوضها معهم تعلم أن سيفه ورمحه لا يزالان ينهشانهم نهشاً .

وأخذت فرنسا منذ احتلت الجزائر تمدد في الأسباب لاحتلال تونس ، وكان حكم البايات فيها قد استشرى فيه الفساد ، لما شاع فيه من جور وظلم ، ولما أزهقت به البلاد من ديون ، وخاصة لفرنسا ، التي ظلت تحيك شباكها حول تونس ، حتى احتلتها لسنة ١٨٨١ بعد أن غلبت على أمرها ، فقد اكتسحت قوى العدو البلاد ، وأخضعها لحكمها بالقهر والبطش . ومضى الفرنسيون يعملون على اغتصاب كل ثروات تونس وإفقار شعبها ونخفها اقتصادياً ، وشدّ الرحال إليها كثيرون منهم : سماسرة وتجار ولصوص محترفون .

وكانت إنجلترا قد أخذت منذ حملة نابليون على مصر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي تعد العدة للانقضاض عليها ، وكانت أجنحتها قد قُصّت منذ سنة ١٨٤٠ ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً إذ جرّدت من عدتها الحربية وأصبحت نهياً للأوربيين ، وعادت ولاية تابعة للعثمانيين ، ومد سعيد يديه إلى الغرب يستدين ، وظل قرصان فرنسي كبير يوسوس له بمشروع قناة السويس لوصول البحرين الأحمر والمتوسط ، ومازال به حتى منحه لسنة ١٨٥٤ العقد المشثوم ، عقد امتياز تأسيس شركة

عامة لحفر القناة ، وكان مأساة لا مثيل لها في التاريخ ، فإن سعيداً لم يقف عند إنشاء القناة على يد شركة أجنبية ، بل مضى يسرف في منحها الحقوق حتى أصبحت كأنها دولة داخل دولة ، وقد تعهد فيها تعهد أن يقدم للشركة ثمانين في المائة مما تحتاج إليه من عمال ، وليس لمصر في مقابل ذلك سوى خمسة عشر في المائة من صافي الأرباح السنوية ، وباع توفيق الأحمتق فيما بعد للبنك العقارى الفرنسى هذه الأرباح التى تخص مصر بثمان بنس : اثنين وعشرين مليوناً من الفرنكات . وتوفى سعيد وخلفه إسماعيل لسنة ١٨٦٣ وحفر القناة قائم على قدم وساق وكان أكثر حمقاً من سلفه ، وتورط في ديون باهظة ، وكان لمصر من أسهم القناة ما يقرب من نصفها اكتتبت بها في عهد سعيد فباعها لإنجلترا بدراهم معدودات : أربعة ملايين من الجنيهات . وأسوأ ما أصيبت به مصر لعهد الديون الفادحة ، إذ مضى يقترض بدون أى مسوغ من البيوت المالية الأجنبية القناطير المقنطرة من الذهب والفضة حتى بلغت أكثر من مائة مليون من الجنيهات ، وكلما تسلم قنطاراً بعثه في مآربه الدنيا ، فقناطير تنفق على بناء قصوره ، وثانية تنفق على مبادئه ، وثالثة تنفق على رحلاته إلى أوروبا والآستانة . ويكفهر الجو ، وإسماعيل سادر في طغيانه وجبروته ، وشيطانه إسماعيل صديق وزير ماليته يسؤل له فرض الضرائب ، حتى كلَّ الشعب وخارت قواه ، وأخذت المشاعر القومية تضطرم ، واضطربت معها في نفوس كثيرين رغبة قوية في الثورة على الظلم والطغيان وما توشك أن تردى فيه البلاد من الإفلاس وما لا يعلمه إلا الله من سوء المصير ، ويرتفع صوت البارودى مجلجلا

لسنة ١٨٦٩ مطالباً شعبه بالقضاء على إسماعيل وحكمه الفاسد قضاء
مبرماً ، صارخاً بكل قوته :

فيا قوم هبوا إنما العمر فرصة وفي الدهر طرُقُ جَمَّةٌ ومنافعُ
أصبراً على مسِّ الهوان وأنتم عديدُ الحصى؟ إني إلى الله راجع
وكيف ترون الذلَّ دار إقامة وذلك فضل الله في الأرض واسع
أرى أروساً قد أينعت ليحصادها

فأين - ولا أين - السيوف القواطع

أهبتُ فعاد الصوت لم يقض حاجةً
إلى ولباني الصدى وهو طائع

والبارودي يهيب بقومه ألا يتركوا الفرصة تضيق من أيديهم فيثوروا

ثورة مدمرة على ظالمهم وأعدائه الذين يذيقونهم ضرراً لا تطاق من
العسف والهوان والذل المقيت الذي لا تستطيع احتماله النفوس الكريمة ،
بل الذي يدفعها دفعاً إلى أن تنتقم لعزتها وكرامتها من أحاطوها به .
وتبلغ الثورة الذروة في نفس البارودي فيطلب إلى الشعب أن يمد
أيديه ليقطف رأس إسماعيل ورءوس بطانته التي أغوته . ويحس كأنما تذهب
صرخته أذراج الرياح ، فيحزن وييأس ، إذ لا يجد الشعب يسارع
إلى الثورة وإلقاء أعباء الظلم عن ظهره .

وكلما تقدمت سنة من سنوات العقد الثامن من القرن الماضي
ازدادت محنة مصر المالية وتكاثرت ديون إسماعيل السفيه ، وليس ذلك

فقط فقد ارتضى تدخل الأجانب في شئون مصر ، وأنشأ لسنة ١٨٧٦ صندوق الدين ، وزاد الطين ضعفاً على إباله ، فارتضى أن يقوم رقيباً إنجليزى وفرنسى على شئون المالية المصرية ، وسرعان ما أصبحا في سنة ١٨٧٨ وزيرين في وزارة نوبار أحد العملاء القداماء للأوربيين ، وأخذت نفوس المصريين تغلي بالحنق والسخط على إسماعيل وحاشيته ، ومضى كثيرون يدعون للثورة على الفساد والظلم والطغيان ، قبل أن تتردى البلاد في هوة لا تستطيع منها خلاصاً ، وعاد البارودى يصيح بالشعب أن يثور على حكامه الفاسدين الجائرين ثورة عنيفة يسترد بها حريته وحقوقه فيمن يوليه شئون نفسه ، حتى يتدارك الأمر قبل فواته ، فيزيح عن كاهله الديون الباهظة ، ويعم الأمن والعدل ويعود الرخاء ، يقول من قصيدة طويلة :

وإننا غرضٌ للشرِّ في زمنٍ
 أهلُ العقول به في طاعة الخَمَلِ
 قامتْ به من رجال السوء طائفةٌ
 أدهى على النفس من بؤسٍ على شَكَلِ
 من كلِّ وَغْدٍ يكاد الدَّسْتُ يدفعه
 بَغْضاً ويلفظه الديوانُ من مَلَلِ
 فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا
 شِكَاةَ الرِّثِّ فالدنيا مع العَجَلِ

وقلِّدوا أمركم شَهْمًا أَخَا ثِقَةٍ
يكون رِدْءًا لكم في الحادثِ الجَلَلِ
وظالبوا بحقوقِ أًصِبحَتْ غرضاً
لكلٍ منتزِعٍ سَهْمًا ومُختَلِ
حتى تعود سماءُ الأمنِ ضاحيةً
ويرفُلُ العَدْلُ في ضافٍ من الحُلَلِ

وهو يستثير الشعب بما يصور من الشر الخائث على صدره وكأنما يستكين عقلاؤه لمن يحكمهم من الخاملين الذين أحالوا حياتهم بؤساً وحزنًا حزن الثكالى على أبنائها، من كل وغد لثيم، يكاد دسته في الحكم أو بعبارة أخرى مجلسه فيه يدفعه عنه دفعاً ليدفع ما دنسه من عار، وأى عار؟ لقد ذلت بهم مصر بعد العز واختل ملكها وكل ما فيها. ويعجب البارودي ألا يسارع الشعب إلى الانتقام من إسماعيل وحواشيه الذين استذلوه، وإنه ليتساءل مستثيراً الهمم ويستنهض العزائم هل حل بالأبطال ضعف أو أصاب الأسياف فلل فلا تستطيع أن تضرب الضربات المصمية، ويدعو محمماً إلى المبادرة وفك عقال الإبطاء، حافزاً للثورة تحت لوائه والمطالبة بحقوق الأمة المشروعة التي أصبحت لكل أبناء الأمم من محاربين بالسيف وبالخديعة والمكر، حتى تشرق على مصر أضواء الأمن والدعة، وحتى ترفل في حلل العدالة والكرامة. وينتهي عصر إسماعيل ويخلفه ابنه توفيق، ويمضي متخبطاً في

سياسة خرقاء عمادها حكم استبدادى ظالم وازدياد نفوذ الأوربيين في الدولة بالإكثار من توظيف كثير من المستشارين الذين تغلفوا في الدواوين ، وإتاحة الفرصة لرءوس الأموال الأجنبية كي تستثمر موارد البلاد وتستترف آخر قطرة من قطراتها . وكان أبوه قد عمل على أن يحرم الضباط المصريين من الترقية إلى الوظائف العليا في الجيش على الرغم من كفايتهم الممتازة ، وجعلها مقصورة على الضباط الأتراك والأشراكسة؛ وتمادى توفيق في هذا الظلم الصارخ ، وبلغ الظلم ذروته بتوليته عثمان رفقي الشركسي شئون البحرية والحربية ، وسرعان ما قامت الثورة العربية بقيادة أحمد عرابي على هذا الظلم المحجف ، وأذعن الخديوي توفيق صاغراً ، ونحرج رفقي من نظارة الحربية والبحرية وتولاها محمود سامي البارودي . وأخذت تتوالى الأحداث ، وتألفت وزارة من زعماء الحركة العربية برياسة البارودي ونهوض عرابي بنظارة الحربية والبحرية . ولم يقر قرار الإنجليز ، لقيام هذه الحكومة الوطنية التي ينتظر أن ترد الأمر إلى نصابه وتتخذ مصر من الدمار الإقتصادي الذي يوشك أن يؤدي بها إلى دمار سياسي أكيد ، وأخذوا يبذرون بذور الوقيعة الوضيعة بين توفيق والحكومة الرشيدة ، وما زالوا يحكون الدسائس والفن حتى ارتضى توفيق الطائش قصير النظر أن تدخل جيوشهم مصر لحمايته من الثوار ، وسرعان ما دوت مدافعهم على شواطئ الإسكندرية وبور سعيد والسويس ، وقاوم الجيش والشعب بقيادة عرابي والبارودي مقاومة بأسلة غير أنهما كانا يقاومان جيشاً ضخماً يفوقهما في عدده وعدته الحربية ، فانصر العدو الآثم ، ومضى حتى احتل القاهرة . ودخلها في ظلال

مدافعه ورضاصه توفيق ومن معه من الخائنين ، واستقر العدو على ضفاف النيل محتلاً البلاد الطاهرة ، زاعماً كذباً وبهتاناً أنه سيجلو عنها حين تبدأ الأمور . ولما هدأت تفاوض مع الدولة العثمانية على الجلاء ، ولكنه وضع من دونه شروطاً تثبت أقدامه في مصر وتفسح له في المقام . وكان زعماء الثورة العربية قد اعتقلوا وألقي بهم في غياهب السجون انتظاراً للمحاكمة ، وحكم بالنفي المؤبد على زعماء الثورة وفي مقدمتهم عرابي والبارودي ، ونفوا إلى سرنديب .

وكان البارودي في كل هذه الظروف التي أجملناها يفرغ إلى قيثارته يتغنى عليها بكل ما يحدث في نفسه من سخط على توفيق وبطانته ، ومن ثورة على المستبد الأرعن ومن محاولة لاستنهاض الشعب كي يلي شواظ غيظه على ظالمه إلقاء عنيفاً يهز القلوب هزاً ويزلزل الفساد زلزلاً يأتي عليه وعلى من يمدون له في أسباب الغواية . ومن خير ما يصور ذلك قصيدته التي نظمها وهو ناظر النظار يدعو فيها دعوة صريحة للثورة على توفيق ، ثورة دامية تطيح برأسه ورءوس أذنا به ، يقول :

تالله أهدأ أو تقوم قيامةٌ فيها الدماء على الدماء تُراقُ
أنا لا أقرُّ على القبيح مهابةٌ إن القرار على القبيح نفاقُ
قلبي على ثقةٍ ونفسي حرةٌ تأتي الدنيِّ وصارى ذلاقُ
وعلام يخشى المرء فرقةً روحه أو ليس عاقبة الحياة فراقُ
وهو يجاهر بأنه لن يهدأ ولن يستريح حتى تنشب ثورة حمراء يسيل
فيها دم توفيق وأعدائه مدراراً ، ويقول إنه لا يقر أي عمل قبيح نفاقاً

ورياء ، فقد خلق أيباً حراً ، يأبى ذنابات الأمور ، معتصماً بسيف قاطع .
وفيم يخشى المرء الموت ، وهو عاقبة كل حى إذ كل من عليها فان
فإما عيش كريم وإما موت زؤام . ولو أنه استخدم سيفه حينئذ وأراح
مصر من محنتها بتوفيق لما نزلت بها الطامة الكبرى ، طامة الاحتلال
البريطانى البغيض . وقد ظلت له بعد إخفاق الثورة العرابية وطوال منفاه
هذه الروح القوية ، وكأن نفسه كانت من الصلابة بحيث لا تؤثر فيها
الخطوب مهما اشتدت ومهما أناخت عليه بكلاكلها الثقيلة ، ولذلك
ذراه من حين إلى حين يدعو إلى الثورة على توفيق ، ثورة تعصف به
وبأعوانه أعداء الشعب الآثمين .

وعلى هذا النحو ظلت الثورة تغلى فى عروق البارودى على الرغم من نفية
إلى سرنديب ، وظل يتذر ويتوعد ويهدد بيوم الثورة الذى يعصف
بتوفيق وبطانته ، والذى يثار فيه الشعب لكرامته . وتلتفت فى وطنه
فلا نجد أصداء لصيحاته وصرخاته ، وكأنما أذهل الناس تفوق الإنجليز
فى أسلحتهم الحربية على نحو ما أذهل ذلك آباءهم وأجدادهم إزاء الحملة
الفرنسية القديمة وعتادها الحربى ، وكانت قد بعثت فى العرب المصريين
تطلعاً قوياً إلى الأخذ بأسباب النهضة العلمية ، فضنوا يحدون نهضة
عظيمة ، كما مضوا يحاولون مقاومة حكم الحديدوين الفردى المطلق ،
وتطورت الأمور ، وأثقل كاهل مصر بالديون ، وعبثاً حاول زعماء الأمة
أن يستخلصوا من إسماعيل وابنه توفيق حقوق أمهم فى الحكم وجميع
شئونها المالية والداخلية والخارجية ، فقد ظل سادرين فى غيبيهما
إلى أن حدثت كارثة الاحتلال البريطانى وجرى الإنجليز الشعب من جيشه

الوطني وأحلوا مكانه جيشاً هزيباً يرأسه سردار إنجليزى وضباط بريطانيون ، ووضعوا أيديهم على كل أدوات الحكم ، وخنقوا الحريات خنقاً . ونفس الرواية كانت تمثلها فرنسا في الجزائر وتونس ، مما جعل الناس يستشعرون هنا وهناك ألماً موحشاً ، وقد أخذوا يضعون أملهم في ضروب من الإصلاح الفكرى والدينى والاجتماعى ، فظهر في تونس خير الدين التونسي الذى كان يستشعر المصير التعس لوطنه قبل نزول الفرنسيين به ، فحضى في طائفة من الإصلاحات التعليمية الدينية يريد أن يستنقذ بلاده من الخرافات وأن يهيئها للحياة العلمية الحديثة ، واستمرت إصلاحاته مطردة ، وإن كنا نلاحظ أنها لم توصل بمحاولات للإصلاحات السياسية بحيث تنشأ مقاومة سريعة ضد الفرنسيين واحتلالهم للغادر للبلاد . ونلاحظ ذلك نفسه في الجزائر ، فإنها لم تحاول مقاومة المحتل طوال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وشطراً كبيراً من القرن العشرين . أما مصر فقد أخذت تعنى بالإصلاح الفكرى الدينى على نحو ما هو معروف عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ودعوته إلى الاجتهاد فى الدين والتحرر العقلى وإنكار البدع والخرافات ، كما أخذت تعنى بالإصلاح الاجتماعى على نحو ما هو معروف عن قاسم أمين ودعوته إلى تحرير المرأة . ولم تنس مصر الإصلاح السياسى وما يتبعه من المقاومة للغاصب الأجنبى ، حقاً لم تبادر إلى ذلك تواتاً ، ولكن لانكاد نشرف على نهاية القرن التاسع عشر حتى يحمل مصطفى كامل لواء مقاومتنا الشعبية ضد الاحتلال ، ويحقق سعى الصحيفة التى أصدرها لمقاومة قوى البغى والشر والعدوان « اللواء » وهى لواء أحاله إلى مقالات نارية وخطب ملتبهة

صارخاً في وجه الإنجليز أن يجلووا عن البلاد، وتنتقل في الديار الأوربية صائحاً في المحافل الدولية بحقوق الشعب المصري في الحرية والحلاء والاستقلال ، حتى إذا حدثت محاكمة دنشواي الجائرة لسنة ١٩٠٦ مضى يصرخ في باريس ولندن مصوراً فظائع الإنجليز وحكمهم الغاشم ، وذلك أن خمسة منهم قصدوا إلى قرية دنشواي لصيد الحمام ، فتعرض لهم نمر من أهلها وتصادف أن أصيب ضابط بضرية شمس أدت إلى موته ، فثارت ثورة اللورد كرومر عميد الإنجليز في مصر ، وأمر بأن تعقد لهم محكمة مخصوصة برئاسة بطرس غالي لمحاكمتهم ، فقضت بإعدام أربعة من المهين شقاً وجلد سبعة بالسياط وحبس ثمانية مدداً متفاوتة . ونفذ الإعدام والجلد برأى من الأهلين تنكيلا . وكان ذلك بمثابة نفي لإيقاظ أهل مصر وتجمعهم تحت لواء مصطفى كامل لمناضلة المحتل الباغى الطاغى في الصحف وبالخطب والأناشيد الحماسية من مثل قول حافظ مجسداً بشاعة هذا الحكم الجائر ، وكانوا إذا شنعوا شخصاً أبقوه معلقاً بجبله حتى يجلد اثنان بالسياط :

جُلدوا ولو منيَّتهم لتعلقوا بحبال من شنعوا ولم يتهينوا
يتحاسدون على الممات وكأشبه بين الشفاه وطعمه لا يعذب
موتان : هذا عاجل متنمر يرنو ، وهذا آجل يترقب
وحافظ بصور الجلودين . وهم يبصرون المشنوقين يتدلون في الحبال
فيمنون لو كان لهم نفس المصير أنفة أن تمس جلودهم سياط العدو
الأثيم وجرأة وبسالة وشجاعة ، بل إنهم ليحسدون إخوانهم المشنوقين

على الموت يريدون أن يحتسوا كأسه ، وهل أمامهم سوى موتين ،
موت عاجل شتقاً ، وموت بطيء يتجرعونه بالسياط وغير السياط ، مما
يسلطه عليهم المحتل الغاشم . وما زال مصطفى كامل والمصريون
يشنون حملات شعواء على كرور وطفغيانه وظلمه الصارخ في كل
صحيفة وعلى كل لسان مما اضطر إنجلترا إلى نقل كرور من مصر .

وسرعان ما يلبى مصطفى كامل نداء ربه ، فيبكيه حافظ ويبكيه
شوقي بكاء حاراً ، يصوران فيه حزن الشعب لفقده ومدى إحساسه
بالخسارة الجسيمة لموته ، من مثل قول حافظ في وصف جنازته :

تسعون ألفاً حول نعشك خُشعٌ يمشون تحت لوائك السيارِ
خَطُّوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزن أسطاراً على أسطارِ
أنا يوالون الضجيج كأنهم ركب الحجيج بكعبة الزوارِ
وتخالهم أنا لفرط خشوعهم عند المصلّى ينصتون لقارى

وكانت القاهرة قد اهترت وارتجت حين بلغها النبأ المفجع ، فخرجت
جماهيرها تودعه وتشيعه إلى مثواه الأخير ، والتفت الألوف المؤلفة حول
نعشه ، وسارت من ورائه وهى تجهش بالبكاء ، مرسله دموعاً غزيراً ،
وتارة تضح بالصراخ والعيول ، وكأنها ركب حجيج زاخر بالضوضاء ،
وتارة يمشع الناس كأنما ينصتون لقارى يتلو آيات الذكر الحكيم ،
فهم واجمون من هول المصائب ذاهلون ، وقد ملأ قلوبهم الحزن والجزع
على بطل الوطنية الأول الذى قضمه الموت فى ريعان شبابه .

وكانت بريطانيا قد عقدت لسنة ١٩٠٤ اتفاقاً بينها وبين فرنسا أقرت فيه لها إطلاق يدها في مراكش في حين تطلق هي يدها في مصر، ومضت فرنسا تنصب الشباك لمراكش حتى وقعت فريسة لاحتلالها المشؤم . وما تلبث إيطاليا أن تطمع في أن يكون لها نصيبها بدورها في الشمال الإفريقي ، فهجم لسنة ١٩١١ بجيوشها وأساطيلها على طرابلس وما وراءها من الديار الليبية ، ويقاومها الليبيون مقاومة عنيفة يكيلون لها فيها كثيراً من الضربات واللطمات ، غير أن التفاوت الشاسع بين القوتين المتحاربتين انتهى بليبيا إلى نفس المصير الذي انتهى إليه احتلال جاراتها . وتصايح شعراء العربية في كل مكان يمجدون نضالها وما بذلت من الدماء مسجلين على الطليان الخزي والعار لقتلهم الشيوخ والنساء والأطفال الأبرياء ، من مثل قول حافظ في ميمية له طويلة :

عجز الطليان عن أبطالنا فأعلوا من ذرارينا الحساما
كبلوهم قتلوهم مثلوا بذوات الخدر طاحوا باليتامى
ذبحوا الأشياخ والزمنى ولم يرحموا طفلا ولم يبقوا غلاما
مالهم والنصر من عاداتهم - لزموا الساحل خوفاً واعتصاما
أفلتوا من نار فيزوف إلى نار حرب لم تكن أدنى ضراما
إن في أضلاعنا أفئدة تعشق المجد وتبأى أن تضاما
وهو يقول إن الطليان حين عجزوا عن لقاء أبطالنا جنباً وفزعاً
سقتوا سيوفهم من ذرارينا وأطفالنا ندالة وخسة ، ومضوا يكبلوهم

بالأغلال ويسفكون دماءهم ، وحتى النساء مثاوا بهن تمثيلاً فظيماً ،
 وذبحوا الشيوخ والزمنى ذوى العاهات ولم يرحموا يتما ولا طفلاً صغيراً .
 وعصف بهم الليبيون عصفاً إذ اضطروهم إلى الانسحاب والارتداد
 إلى الساحل ، ويشنى حافظ غيظه منهم بسخرية لاذعة إذ يجعل النصر
 من عاداتهم وهم يفرون على وجوههم ، ويشير إلى بركان فيزوف
 جنوبى إيطاليا قائلاً إنهم فروا منه إلى بركان عربى لا يهدأ ولا يجمد
 ولا تسكن فورته . ويعلن أن العرب فى ليبيا وغير ليبيا سيظلون يناضلون عن
 كرامتهم إلى آخر قطرة من دماءهم ، ولن يهنوا ولن يضعفوا ولن يلحقهم
 أى ضيم أو هوان . وكتب على ليبيا ما كتب على جاراتها من احتلال
 الأجانب الآثمين .

وكان قد تزعم الحركة الوطنية فى مصر بعد مصطفى كامل صفيه
 ورفيقه محمد فريد ، فظل يصارع العدو الباغى وهو يلتقى به فى
 السجون حتى بدأ منفاه فى أوروبا لسنة ١٩١٢ ، وظل سنوات متصلة
 يختلف إلى المؤتمرات هناك ويكتب فى الصحف ويخطب فوق أعواد
 المنابر مدافعاً عن قضية وطنه دفاعاً حاراً حتى لبي نداء ربه لسنة ١٩١٩ ،
 وكان الشعب المصرى قد فاض به الكيل ، فثار ثورة ضارية على الإنجليز
 وكانوا أعلنوا عليه الحماية عقب نشوب الحرب الكبرى الأولى لسنة ١٩١٤
 كما أعلنوا الأحكام العرفية وفرضوا رقابة شديدة على الصحف وكموا
 الأفواه ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها أخذ الشعب يطالب بحقه
 المشروع فى الحرية والاستقلال ورفع الحماية عنه والأحكام العرفية
 والرقابة على الصحف وجلاء العدو عن البلاد ، وكأنما كان ذلك

إيداناً بأن يشور البركان العربي الذي أشار إليه حافظ ثورة تظل تنفجر في كل مكان تحت أقدام المحتلين الباغين. والشعب المصرى بذلك هو أول شعب عربى أضرَمَ النضال في القرن العشرين ضد الأعداء الطاغين ، فأخذت حممه تسيل ملتهبة : وطمّ السيل في شهر مارس لسنة ١٩١٩ وتحول إلى ما يشبه طوفاناً من مظاهرات الطلاب والعمال وأفراد الشعب عن بكرة أبيه ، وسكّطت القوات الإنجليزية مدافعها ونيرانها وحصانها عليهم ، ولكن السيل لم يتوقف بل أخذ يزداد كل يوم وأمواجه تتدافع . ولم تلبث النساء أن شاركت الرجال في الجهاد ، فألّفن مظاهرات كبيرة ظفن فيها بالشوارع وبأيديهن احتجاج مكتوب يُردن تقديمه إلى سفراء الدول الأجنبية ، وتصدت لمن قوات العدو والغاشم ضاربة حولهن نطاقاً وسددة بنادقها وحراهما لصدورهن وفي ذلك يقول حافظ محبياً شجاعتهن واستبسالهن ساخرأً من قوات العدو ومسلكها الخزى المشين :

خرج الغواني يَحْتَجِجُ نَ وَرُحْتُ أَرْقَبُ جَمْعَهُنَّ
 وإذا بجيشٍ مقبلٍ والخيلُ مطلقة الأَعْنَةَ
 وإذا الجنود سيوفُها قد صُوبَتْ لِنُحُورِهِنَّ
 وإذا المدافع والبنا دق والصوارم والأسِنَّةُ
 فتطاحن الجيشان سا عاتٍ تشيب لها الأَجِنَّةُ
 فليهنأُ الجيشُ الفخو رُ بنصره وبكسرهنَّ
 وحافظ يصور كيف برز النساء مظاهرات محتجات تكسوهن

الحشمة والوقار ، يهتفن بسقوط الحماية وحياة الاستقلال والحرية . وهو وغيره من أبناء الشعب يشاهدون في إجلال هذا الموكب النسائي الحافل ، وما إن طفن ببعض الشوارع هاتفات حتى تصدى لمن العدو بخيله وفرسانه ومدافعه ونيرانه ، وقد صوب بنادقه لنحورهن ، وهن لا يأبهن لرصاصه وتهديده ، مع أنهن كن مجردات من السلاح ولم يكن بأيديهن سوى الأعلام والورد والريحان ، وتطاحن الجيشان : جيش النساء المصري وجيش العدو الآثم ساعات يشيب لها الولدان بل الأجنة في الأرحام ، حتى إذا كَلَّت قوى النساء عدن بأكاليل الفخار إلى بيوتهن . وحافظ يهني الجيش البريطاني بنصره المخزي وانكسار جيش النساء المصري المشرف ، في سخرية مرة قاتلة .

وتحولت ديار مصر جميعها إلى بركان كبير ، فإذا الثورة تتفجر في كل مكان وفي كل بلد كبير أو صغير ، وتظل أشهراً متوالية ، ويتصدى لها العدو الغاشم بالرصاص والمدافع ، ويتساقط الشهداء بالمئات ، وتحول القاهرة والإسكندرية إلى مجازر تجري فيها الدماء أنهاراً ، وتتبعهما كثير من المدن ، والجميع ينادون : الاستشهاد الاستشهاد . ويقم العدو ومحامات الثوار في كل مكان وينصب مشانقه ، والشعب يزداد كل يوم هياجاً وحماسة وعنفاً بالعدو ، وضحاياها تتكاثر وهو يقدمها راضياً لمطلبه الأسمى في الحرية والاستقلال ، وكأنما عاهد وطنه ألا يغمد نضاله وجهاده إلا إذا تحقق له استقلاله وسيادته ، حتى إذا كان شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ أرسل الإنجليز لجنة ملتر للتحقيق ، وأدرك الشعب ما في ذلك من مراوغة ، فظل في هياجه ومظاهراته وظل الإنجليز يعقدون

محاكماتهم العسكرية وما تقضى به من الأشغال الشاقة والإعدام ، وظلت وقائع الثورة متصلة حتى أعلن الإنجليز تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ وفيه أعلنوا انتهاء الحماية البريطانية على مصر واعترفوا بها دولة مستقلة ذات سيادة ، وكان ذلك نجاحاً كبيراً لثورة سنة ١٩١٩ وإن كانت لم تنجح في إجلاء الإنجليز عن البلاد ، وبذلك ظلوا يتدخلون في شئون مصر ، وظلت لهم السيادة فعلا وإن ألغيت قولا . ومن الحق أن هذه الثورة كانت صفحة مجيدة في الجهاد والنضال سطرها أبناء الشعب المصرى الأبطال بدمائهم الزكية ، أبطال مجهولون ضحوا بأرواحهم لينال الشعب حريته وسيادته واستقلاله ، غير حافلين بذكر أو شهرة ، إنما شيء واحد الذى حفلوا به : أن يحققوا لأمتهم ما تبغيه من الحياة الحرة المستقلة الكريمة ، وقد مضوا يستقبلون الرصاص ونيران المدافع فى شجاعة وبسالة حتى امتلأت المدن الكبرى والصغرى دماء . وكلما أمعن الإنجليز الغادرون فى القتل والحكم بالإعدام والسجن واقتراف الآثام أمعن أبناء الشعب فى التضحية وبذل المهج والأرواح . وظل ذلك أشهراً متعاقبة ، والرصاص يدوى ، والشهداء يتزاحمون على حياض الموت وحبال المشانق فى سبيل الحرية المهذرة ، حتى أحالوا هذه الدورة فى تاريخ مصر العربية إلى دورة بطولة ، لاتقل عن دورات بطولاتنا التاريخية شأناً .

وإذا كنا نكثر من الحديث عن بطولات العرب فى حروب الروم والصليبيين والمغول ونلتمس فيها الفخر والقدوة المثلى فأحر بنا أن نتحدث عن بطولات المصريين فى هذه الثورة ، وكيف نهضوا بها عزلاً ،

لا يحملون شيئاً من سلاح أو عُدّة سوى الشعور بالعزة والكرامة وما ينبغي أن يُردّ عليهم من الحرية والاستقلال، ومن المؤكّد أنّنا حتّى اليوم نستلهم هذه الثورة الدامية، وكأنا كانت الفجر الذي انبثقت منه ثورات العرب ومقاومتهم في كل مكان للمحتلين أو كأنها بدء تاريخهم الحى الحديث. وبحق أكثر شعراؤنا وشعراء البلاد العربية من الإشادة بأبطالها المجاهدين وما ضربوا من أروع الأمثلة في الفداء والتضحية، من مثل قول أحمد محرم في استشهاد الثائرين وخوضهم غمار النار والرصاص مليون نداء الوطن :

يمشى الشهيد على الشهيد وإنما
يمضى على أثر الرفاق ويتبعُ
ويح الركائب والنواعب هاجها
عادى الفراق فذاهب ومشيّع
يا مصر أنت لكل نفسٍ مطلبٌ
جللٌ وأنت لكل قلبٍ مطمع
تحيين بالقتل النفوس فلا المنى
تطوى لديك ولا الدماء تضيعُ

وهو يصور كيف كان الشباب يرى مصارع أقرانه، فلا يهدّ ذلك ثورته، بل يشعل حفيظته، ويتقدم بدوره لتكتب له الشهادة مثل

نظرائه . ويتكاثر صرعى الثورة ، ويتكاثر الراحلون والمشيوعون ، وكل يريد أن يفدى مصر وطنه بدمه ومهجته الغالية . ويحيى خليل مطران أرواح هؤلاء الشهداء بقصيدة بالغة التأثير ، وفيها يقول :

تحيةً أيها القتلى وتسليماً بلغمُ الشأو تحليداً وتعظيماً
لا يعبد المرء رباً لا ولا وطناً بمثل إغلائه القربان تقدماً
يحطم العظم منكم دون بُغيتكم فتصبرون ويأبى العزم تحطياً
ليس الشهادة إلا من يموت على حقٍّ ومن لا يبالي فيه ما سياً
للمشترى بصباه عزٍّ أمته ذكرٌ يديم اسمه بالتبرمقوماً
هل نال حرية قومٌ بها جدُّوا وهم يبالون تقتيلاً وتكليماً
وهو يشيد بما بذل الشهداء من مهجهم بذلاً بلغوا فيه الذروة

في التضحية والفداء ، إذ قدموا أعلى ما يملكون لوطنهم المعبود ، قدموا أرواحهم راضين ، لا يهمهم أن تحطم عظامهم ، بل لأنهم ليصبرون على هذا التحطيم ، بل لقد عقدوا العزم عليه . وذلك هو الاستشهاد الحق الذي يستعذب فيه الشهيد كل ما يسام من عذاب حتى القتل وسفك الدماء ، وإن أسماء هؤلاء الشهداء الذين اشترى عز أمتهم وكرامتها بشبابهم الناصر لتكتب بالتبر ، بل لأنها لتحفر حفراً في قلوب الأجيال التالية . وحقاً لا ينال قوم حريتهم ولا يصبحون جديريين بها إلا إذا لم يبالوا بما قد يصيبهم من تقتيل وتجريح ، وكان منهم مثل هؤلاء الشهداء البررة .

وكانت هذه الثورة العاتية بمصر الشعلة القوية التي أضاعت للعرب طريق الثورة على المحتلين الغاصبين في ديارهم المختلفة ، وكان الإنجليز قد احتلوا العراق عقب الحرب الكبرى الأولى وأخذ العراقيون يقاومونهم منذ وضعوا أقدامهم في البلاد ، حتى إذا كانت سنة ١٩٢٠ ثاروا عليهم ثورة عنيفة في الجنوب والوسط والشمال وفي أنحاء نهر الفرات المختلفة وفي النجف والكوفة والحلة والرميثة ، وفزع الإنجليز الباغون إلى الرصاص والنار ، واستبسل الشعب في جهاده ونضاله استبسالا رائعا ، وظل الشعراء يحمسونه ويستثيرونه للنضال من مثل قول الجواهري مخاطبا الثوار :

أسيافكم مرهفةٌ وعزمكم متقيدٌ
هبوا كفتكم عبرةٌ أنخبار من قد رقدوا
هبوا فعن عرينه كيف ينام الأسد
وثورةٌ بل جمرهٌ ليعرب لا تخمد
أججها آباؤهم والحرُّ لا يستعبد

والجواهري يقول للثوار إن العزم في قلوبكم والسلاح بأيديكم ، فهبوا للتنكيل بالأعداء حتى لا يكون شأنكم شأن النائم الغافلين ، وهل يغفل الأسد عن عرينه وينام ؟ لأنها ثورة ملتهبة ، بل جمره مشتعلة للعرب لا تخمد ولا تنطفئ ، أشعلتها أمجاد آباؤهم الحربية القديمة وانتفاضة الحر الأبي على مستعبده الذي يستره انتفاضة تمحقه محقا . غير أن الإنجليز خدروا العراقيين بحكومة وطنية أقاموا عليها فيصل بن الحسين

ونادوا به ملكاً على العراق في غير ملك حقيقي ، بل في ملك مزيف .
يسنده جيش الاحتلال ، وظل الإنجليز الباغون يراوغون الشعب
بمعاهدات تغله وتطوق عنقه ، والمظاهرات تتوالى من حين إلى حين ،
والشعب غاضب حائق حنقاً شديداً .

وبينا كان العراقيون يقومون بثورتهم على الإنجليز واحتلالهم البغيض
لسنة ١٩٢٠ كان الفرنسيون يحاولون احتلال لبنان وسوريا ، وقد اصطدموا
بمقاومة عنيفة وخاصة في سوريا ، فإن الجنرال الفرنسي « غورو » حين
زحف بجيوشه نحوها قاصداً فتحها تصدى له الجيش السوري
في ميسلون بجوار دمشق ، وكان يقوده اللواء يوسف العظمة ، فصمم
هو ومن معه من الجيش أن يظلوا صامدين في قتال الفرنسيين حتى الموت ،
وكانت عدتهم قليلة فخرروا صرعى في ميدان الشرف والجهاد . ويقول
خليل مردم من قصيدة بصور فيها استبساله هو ورفاقه في القتال
دفاعاً عن الوطن المقدس :

هوى وحلته حمراء من دمه

كالشمس حين هوت في ثوبها الجادى

صديان لم يرو حتى عب من دمه

والهف نفسى له ريان أو صادى

في فتية نفرو للموت حين بدا

جريدة من زرافات وآحاد

صَلَّى إِلَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَجْنَدِلَةٍ أَشْلَاؤُهُمْ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَأَنْجَادٍ

وهو يقول إن يوسف العظمة نحرَّ صريعاً وحلته عاطرة بدمه كأنه الشمس تغرب في ثوبها القاني ، عطشان لم يطفى غلة ظمئه إلا دمه الغالي ، ويتحسر عليه مرتويماً وظامئاً . ويشيد بصحبه الأبطال الذين نفر واعمه للنضال جماعات ووجداناً ، يريدون تغذية الوطن بمهجهم وأرواحهم ودمائهم . ويردم يدعو الله أن ينزل هؤلاء الصرعى الذين تناثرت أشلاؤهم في الأغوار والأنجاد منازل المقربين في عليين . وانتهت معركة ميسلون نهاية فاجعة ، فقد احتل الفرنسيون سوريا وظلوا بها حتى سنة ١٩٤٥ ، ومازال السوريون يشورون بهم ثورات عارمة حتى اضطروهم إلى الجلاء .

وكان البركان المصري قد ثار ، وظلت حممه وشعله تتدافع ، والشعراء من أمثال شوقي وحافظ يستحثون الشباب على جهاد الإنجليز مستهضين عزائمهم في مغالبتهم ، حتى تنكشف سحابتهم السوداء عن سماء البلاد . ومن خير ما يصور ذلك قول شوقي في سنة ١٩٢٤ حين أطلقت طائفة من سُجَّناء الشباب ورُدَّتْ إليها حريتها ، وكانت قد وجهت إليها تهمة التآمر ضد المحتلين الباغين :

يا مصر أشبالُ العرينِ ترعرعتْ
ومشتْ إليك من السجون أسوداً

طلبوا الجلاء على الجهاد مشوبة
 لم يطلبوا أجر الجهاد زهيدا
 وجد السجين يداً تحطّم قيده
 من ذا يحطّم للبلاد قيودا
 ربحت من التصريح أن قيودها
 قد صيرن من ذهب وكن حديدا
 أو ما ترون على المنابع عدة
 لا تنجلي وعلى الضفاف عديدا
 والله ما دون الجلاء ويومه
 يوم تسميه الكنانة عيدا

وشوقى ينوه بأشبك الشباب الذين خرجوا من السجون ليوثاً كاسرة ،
 ويقول إنهم يتحملون ما يتحملون من عذاب السجون في هسبيل الجلاء
 الموعود ، ويألم أن يحطم السجين قيده ولا تحطّم القيود الملتفة حول
 رقاب البلاد ، قيود الاحتلال البغيض . ويسخر من تصريح ٢٨ فبراير
 لما يحمل من قيود الحماية ، وكل ما فى الأمر أنه طلاها بذهب طلاء
 كاذباً ، إذ لاتزال جنود المحتل تعيث فى البلاد فساداً ولايزال يسيطر على
 أداة الحكم محتلاً ضفاف النيل من منبعه إلى مصبه . ويهتف شوقى
 استظل مصر محزونة حتى يتحقق لها الجلاء ، وإن يومه ليوم عيدها
 المأمول .

ويظل شرر البركان المصرى يتطاير فى الدير العربية ، ويسقط
بعض منه فى المغرب الأقصى ، فيثور الريف فى شماله بزعامه
المجاهد الكبير محمد عبد الكريم الخطاى ، وسرعان ما ينازل
جيوش إسبانيا ويسحقها فى غير موقعة، وتنازله فرنسا ، ويظل نضاله
فى سبيل تحرير بلاده محتدماً من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٦ . ويضطر
بأخرة إلى الاستسلام بعد أن أبلى هو وجنوده بلاء عظيماً ، كان له أعظم
الأثر فى اشتعال الوعى الوطنى والقوى فى المغرب جميعه ، وقد هب
كثير من الشعراء يستهضون الشباب المغربى ويحرضونه على حرب الباغين
المعتدين بالقصائد والأناشيد الحماسية من مثل قول أبى بكر بنانى
فى نشيد يهز القلوب :

يا بنى المغرب هيا للقتال واستعدوا للوغى قبل النزال
أنتم والله شجعان الرجال واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب هبوا هبةً واضربوا وجه فرنسا ضربةً
ذكرها يبقى عليها سبةً واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بنى المغرب موتوا شهداء لا تعيشوا تحت إذلال العدا
مزقوا الكفر وأشراك الردى واسألوا الله انتصار المسلمين

وبنانى يصرخ فى شباب المغرب أن يتقدم للقتال متخذاً عدته من
السلاح مسجلاً ما يتصفون به من الشجاعة والبسالة ، حتى يضربوا
العدو الضربة القاضية ، وإنه ليطلب إلى الشباب الاستشهاد فى سبيل

طن المقدى وماغشيه من ذل الاحتلال وأن يمزقوا الفرنسيين شر ممزق ،
فى تعلو راية الإسلام ويتحقق لهم النصر المين .

وما يلبث جبل الدروز لسنة ١٩٢٥ أن يثور بدوره على الفرنسيين
برة ضارية وتثور معه دمشق وبلدان سوريا ، ويخوض السوريون
المستعمر ثورة حامية ، يسلط فيها على الثائرين مدافعه ورصاصه
برانه ويرون صواعق الموت أمامهم ، ويرامون على النضال والجهاد
ضحين بأرواحهم فى سبيل ما يبتغون لوطنهم من حرية واستقلال .
ثار نضالهم الرائع الشعراء لافى سوريا فحسب ، بل فى جميع البلاد
عربية ، ولشوقى تحية بديعة لهذا النضال يقول فى تضاعيفها مشيداً
بسالة دمشق وأهلها الأحرار :

بالأوطان فى دم كل حرٍّ يدٌ سلفتٌ ودين مستحقٌ
ومن يستقى ويشرب بالمنايا إذا الأحرار لم يُسْتَقَوْا أويسقوا
ولا يبنى الممالك كالضحايا ولا يُدنى الحقوق ولا يُحقق
ففى القتلى لأجيالٍ حياةٌ وفى الأسرى فدى لهم وعق
وللحرية الحمراء بابٌ بكل يدٍ مضرجةٌ يدقُّ
جزاكم والجلال بنى دمشقٍ وعزُّ الشرق أوله دمشقُ
وشوقى يقول إن كل مواطن حر يشعر بأن لوطنه عليه بدأ وديناً
ينبغى أن يؤديه من دمه مورداً أعداءه حتوفهم ، وإن الدول لا بينها
ويرفع بناءها شاهقاً فى السماء مثل الضحايا الذين يقدونها بمهجهم ودمائهم

مستترلين بذلك حقوقها السلبية من أيدي أعدائها الباغين . وإن قتلاهم ليقدمون للأجيال التالية حياة كريمة، ومثلهم الأسرى وما يتحملون من ألوان العذاب ، ويقول إن للحرية باباً لا تفتحها إلا الأيدي المضرجة بالدماء ، ويحيي أهل دمشق ونضالهم الذي يجسم عزيمتهم وكرامتهم بل كرامة الشرق كله وعزته .

ومنذ سنة ١٩١١ كان الليبيون يقودون حركة مقاومة عنيفة ضد إيطاليا ، وسعرت مقاومتهم الثورة المصرية لسنة ١٩١٩ وما تبعها من هب ظل شواظه متقدماً ، حتى إذا كانت سنة ١٩٣١ قاد بطل طرابلس الخالد عمر المختار المقاومة ، وأحاطها إلى مقاومة مسلحة ، وظل يقاتل الظليان ويصارعهم حتى تمكنوا من القبض عليه وأعدموه شنقاً ، وارتكبوا في إعدامه طرقاتاً بشعة متوحشة ، وكان لذلك رنة غضب وسخط بعيدة المدى في البلاد العربية ، عبر عنها شوق في رثائه محاولاً أن يثير الشعب الليبي لقهر الباغين الظالمين :

رَكَزُوا رِفَاتِكَ فِي الرَّمَالِ لَوَاءَ يَسْتَنْهَضُ الوَادِي صِبَاحَ مَسَاءِ
يَا وَيَجْهَمُ نَصْبِوَامِنَاراً مِنْ دَمٍ يُوْحِي إِلَى جَبَلِ الغَدِ البَغْضَاءِ
جُرْحٌ يَصِيحُ عَلَى المَدَى وَضَحِيَّةٌ تَتَلَمَّسُ الحَرِيَّةَ الحَمْرَاءِ
يَأْيُهَا السَيْفِ المَجْرَدُ بِالفَلَا يَكْسُو السَيْوْفِ عَلَى الزَّمَانِ مِضَاءِ
فِي ذِمَّةِ اللهِ الكَرِيمِ وَحَفْظِهِ جَسَدٌ بِبِرْقَةٍ وَوَسَدَ الصَّحْرَاءِ
وَهُوَ يَقُولُ إِنْ العَدُوَّ أَلْتِي بِجَمَانِ عَمْرِ المَخْتَارِ مِنْ حَالِقِ إِلَى الرَّمَالِ ،

وكانما نصب به لواء يستثير به عزيمة الليبيين كى يقتصوا منه ، وياويحهم ، بل لقد رفعوه أمام أعين الليبيين مناراً يقطر دماً ، ولا بد أن يثاروا له يوماً . وإنه بلجرح فى الصميم يصرخ فى أعماقهم أن يلتمسوا الحرية التى لا تتحقق إلا بالتضحيات والدماء تسيل أنهاراً ، ويخاطب عمر المختار قائلاً إنه سيظل فى ثراه سيفاً مسلولاً يملأ سيوف مواطنيه مضاء وعزيمة ، ويقول فى ذمة الله وحفظه هذا الجسد الطاهر المسد فى تراب الصحراء .

وتظل مصر تقاوم الإنجليز مقاومة عنيفة ، وعبثاً يحاولون تشديد قبضتهم على البلاد ، إذ كانت دائمة الثورة عليهم ، حتى إذا كانت سنة ١٩٣٥ تزايد العنف شدة ، وسقط بعض الطلاب صرعى رصاص العدو الغادر ونيرانه ، واضطر الإنجليز إلى إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وكانت بدورها مثل تصريح ٢٨ من فبراير تقوم على دفاع إنجلترا عن مصر فى حالة الحرب وتقديم مصر لها موانئها وطرق مواصلاتها ومطاراتها كى تستخدمها كما تشاء ، وكانما الدماء التى سالت أنهاراً ذهبت هباء .

ولا نصل إلى هذا التاريخ حتى ترتفع مقاومة عرب فلسطين ضد الصهيونية والإنجليز إلى الذروة ، وكان ايزمان زعيم الفكرة الصهيونية قد حصل فى سنة ١٩١٧ على وعد بلفور الذى تعهد به الإنجليز الآثمون أن يكفلوا للصهيونيين وطناً قومياً فى فلسطين ، ووضعت الحرب الأولى أوزارها ، وثبتت البريطانين فيها أقدامهم باسم الانتداب ، وجعلوا على رأس إدارتهم لها مندوباً سامياً يهودياً ، أخذ يشجع هجرة اليهود إلى فلسطين . وتنبه العرب الفلسطينيون إلى ما يبيت لهم ، فأخذوا يثورون على الانتداب البريطانى ووعد بلفور منذ سنة ١٩٢٠ ، ولكن الاستعمار

والصهيونية مضياً في مؤامرتيها الدينية ، فأنشئت وكالة يهودية بفلسطين لتنظيم الهجرة ، واحتلَّ اليهود مدن الساحل الفلسطيني ، وأنشأوا بلدة تل أبيب بجوار يافا وجعلوها مقراً لوكالتهم ، ولم يلبثوا أن شكلوا جماعات إرهابية عسكرية ، والفلسطينيون يزداد إحساسهم كل يوم باستفحال الخطر ، وتزداد مقاومتهم له ، ويؤيدهم العالم العربي ، غير أن حكوماته كانت لا تستطيع أن تقدم لهم شيئاً ، فقد كانت موزعة بين النفوذ البريطاني والفرنسي والإيطالي ، وكانت مشغولة بمشاكلها ، فلم تستطع أن تقدم لعرب فلسطين أي عون ، وظلوا وحدهم يقاومون الاستعمار البريطاني والصهيونية اليهودية ، حتى إذا كانت سنة ١٩٣٦ تحولت مقاومتهم إلى ثورة عسكرية مسلحة ، دمرت كثيراً من المنشآت العسكرية البريطانية . ونصب الإنجليز مدافعهم يحصدون زهرات الشباب اليانعة ، كما نصبوا سجونهم ومحاكمهم العسكرية لا في هذه السنة فقط بل منذ العقد الثالث من هذا القرن ، والشباب يستبسل في مقاومته باذلاً مهجه وأرواحه الغالية فداءً عزيزاً لوطنه المقدس . وتتجسم في أثناء ذلك بطولات رائعة ، لعل إبراهيم طوقان شاعر فلسطين خير من صورها ، وتتلحق في ديوانه صفحات هذا التصوير ، ومن أروع ما نظمه قصيدته في تصوير الفلسطيني الذي يحمل روحه على راحته فداءً لوطنه ، وفيها يقول :

هو بالباب واقفُ والردي منه خائفُ

فاهدئي يا عواصفُ نخجلا من جراحته

صامتٌ لو تكلمنا لفظ النار والدماء
 قل لمن عاب صمته خلق الحزم أبكمًا
 وأخو الحزم لم تنزل يده تسبق الفما

وهو يقول إن الفدائي لا يهاب الردى، بل الردى هو الذي يهابه ويهاب جراته وشجاعته التي تشبه إعصاراً ملتهباً ، وإنه ليطلق رأسه مصمماً على القتل والفداء لا يتكلم ، ولو تكلم لكان كلامه ناراً ودماء . إنه لا يهجم الكلام إنما يهجم العمل والنفوذ إلى غايته المثلى من التضحية والقتل والقتال . وظنت بريطانيا أنها تستطيع وقف المقاومة الفلسطينية بوضع مشروع تقسيم لفلسطين في سنة ١٩٣٧ ولكن العرب الفلسطينيين ازدادت مقاومتهم واتسع نطاق المعارك ، فاضطرت بريطانيا إلى إعلان تحليها عن مبدأ التقسيم الأثيم .

وقد توقفت الحركات الثورية العربية في فلسطين وغير فلسطين مع نشوب الحرب العالمية الثانية إلا ما كان من حركة رشيد الكيلاني في العراق لسنة ١٩٤١ على أنها سرعان ما أخفقت ، وكأنما كانت البلاد العربية تنتظر نتيجة الحرب ، حتى إذا انتهت أخذ كل بلد يعد العدة للانتفاض على المستعمر وطرده من البلاد ، وأول بلدين تحقق لهما ذلك سوريا ولبنان ، وكانت فرنسا قد أعلنت استقلالهما في سنة ١٩٤١ مراوغة وكسباً للوقت ، حتى إذا كانت سنة ١٩٤٦ نالتا استقلالهما وردت إليهما حريتهما المفقودة ثمرةً لجهادهما المحتلم . ومضت العراق تكافح الإنجليز ، ويسول لهم شيطانهم في سنة ١٩٤٨ عقد معاهدة معها ، ويثور الشباب

ويسلط الإنجليز عليه نيرانهم ورمصاصهم ، ويسقط في الثورة كثير من الشهداء ، وينوه الجواهرى ببطولتهم في إحدى قصائده مصوراً للشباب العراقي الخطوب التي تنتظره في طريق النضال ، يقول :

يوم الشهيد طريق كل مناضلي وعُرٌّ ولا نُصَبٌ ولا أعلامُ
في كل منعطفٍ تلوح بليَّةٌ . وبكل مفترقٍ يدبُّ حِمَامُ
وحياض موتٍ تلتقي جنباتها وعلى الحياض من الوفود زحامُ
يوم الشهيد بك النفوس تفتحتُ

وَعِبَاءٌ كَمَا تَتَفَتَحُ الْأَكْمَامُ
حملوا الرصاص على الصدور وأوغلوا

فعلى الصدور من الدماء وسام

وهو يصور هذا اليوم الممتد في جميع أقطار العالم العربي ، يوم نضال الشهيد حتى الموت ، ويقول إنه يوم وعر مسالكة ، ففي كل منعطف وكل مفترق طريق يقف الموت ، والشباب يتزاحم على حياضه . وإنه ليوم العروبة الذي تفتحت فيه الآمال تفتح الأكام عن الأزهار ، والشباب يعرض صدوره للرصاص ، وتسيل الدماء أسمة مجد وعزة وحرية وكرامة . وكانت مصر قد انتفضت بدورها وأخذ الشباب ينزل بالجيش المحتل في القنال خسائر فادحة في الأرواح والمعدات ، ويزلزل الأرض من تحت أقدامه زلزالا .

وأخذت الصهيونية في أثناء الحرب العالمية الثانية تنشيط في الولايات المتحدة مستغلة تنافس الحزبين الديمقراطي والجمهوري في الحملة الانتخابية ، مما دفع ترومان إلى إصدار بيان دعا فيه إلى فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية ، واستطاع الصهيونيون أن يؤسسوا قوة عسكرية كبيرة تابعة للوكالة اليهودية . وفي سنة ١٩٤٤ قامت الجامعة العربية ، واهتم ميثاقها بمشكلة فلسطين ، وسرعان ما قررت مقاطعة يهود فلسطين اقتصاديا ، وحاولت جاهدة استثارة الضمير الأمريكي والإنجليزي في استشعار حقوق عرب فلسطين ولكن دون جدوى . وأخذت بريطانيا تعمل على خداع العرب ، فتخلت عن القضية لهيئة الأمم وقدمت في سنة ١٩٤٧ لجنة دولية للهيئة تقريراً يقترح تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية . وأثار هذا الاقتراح الذي وافقت عليه هيئة الأمم ثائرة الأمة العربية ، فنشبت المظاهرات في القاهرة وغيرها من دول العرب الكبرى وكونَّ عرب فلسطين جيش التحرير العربي ، وأعلن الصهيونيون قيام دولتهم اليهودية : إسرائيل . وأصبح الفلسطينيون وجهاً لوجه أمام الإرهاب الصهيوني ، وناضل عرب فلسطين منذ أول سنة ١٩٤٨ نضالاً دموياً محتدماً عاونهم فيه أفواج جيش الإنقاذ الذي درَّب في سوريا ومتطوعون كثيرون من الأقطار العربية . ووضع الإنجليز أيديهم في أيدي اليهود ، فجللوا عن تل أبيب والمناطق اليهودية ليستولى الصهيونيون على المطارات والمرافق العسكرية ، على حين ظلوا يحتلون المناطق العربية ، وهجم اليهود على الفلاحين في قرية دير ياسين وذبحوا من أهلها الوداعين مئات وكذلك فنكوا بقرية ناصر الدين ، وتوالت الفظائع الصهيودية الوحشية

فهاج الرأي العربي العام وطالب حكوماته بالتدخل العسكرى لإنقاذ فلسطين . ودخلت الجيوش العربية الديار الفلسطينية وتقدمت في جميع الميادين على الرغم من أنها لم تكن كاملة الإعداد ولانامة التنظيم ، وبادر مجلس الأمن بمساعي الولايات المتحدة وإنجلترا إلى الانعقاد وأعلن وقف القتال وقيام هدنة بين الطرفين . وانتهز الصهيونيون الفرصة للاستعداد وتعزيز قوتهم الحربية ، وعاد مجلس الأمن للنظر في مشروع تقسيم جديد لفلسطين بين العرب واليهود ورفضه عرب فلسطين والجامعة العربية ، واستؤنف القتال في شهر يولية ١٩٤٨ بكل الجبهات ، وانصر العرب في كثير من المواقع ، غير أن القوة الأردنية انسحبت من بلدتي اللد والرملة فاحتلها اليهود ، وأحدثوا فيها مجزرة وحشية هائلة ، وانسحبت في أثناء ذلك القوة العراقية ، وكذلك انسحب جيش الإنقاذ في الشمال ، واستولى اليهود على صفد والناصرة ، وكثرت اللاجئون والمشردون عن ديارهم وأوطانهم . وركزت القوات اليهودية حملتها على القوات المصرية لإجلائها عن النقب غير أنها صمدت في مواقعها صموداً مشرفاً ، ولم يلبث مجلس الأمن أن قرر وقف القتال في ١٥ من يولية لسنة ١٩٤٨ . وظلت القوات المصرية تستبسل في المقاومة إلى أن وافقت مصر على الهدنة في أوائل سنة ١٩٤٩ .

وكان عرب فلسطين في كل هذه المعارك يكافحون اليهود ويقاومونهم ويقدمون أرواحهم ودماءهم لوطنهم ضارين أروع الأمثلة في الجهاد والنضال ، من مثل عبد القادر الحسيني شهيد القسطل الذي طالما دوخ اليهود بمن كانوا معه من الفدائيين ، وأنزل بهم ضربات قاصمة .

وكان من بين هؤلاء الأبطال الفلسطينيين شعراء غدوا الثورة ببطولتهم الحربية وأشعارهم الحماسية ، مثل عبد الرحيم محمود الذي كان يعمل بالتدريس في فلسطين ثم في العراق، حتى إذا كانت سنة ١٩٤٨ لبي داعي الجهاد ملتحقاً بجيش الإنقاذ ، ومازال يخوض مع العدو المعارك وهو يتغنى بالأشعار المثيرة، حتى سقط في معركة الشجرة بجمال الجليل كاتباً بدمه على ثرى وطنه الحبيب أروع قصيدة مؤثرة، محققاً بذلك ما تمناه في بعض قصائده من استشهاده في سبيل بلاده ، يقول :

أرى مقتلى دون حتى السليبِ ودون بلادى هو المبتغى
يلدُّ لأذنى سماع الصليلِ ويبهج نفسى مسيلُ الدما
وجسمٌ تجندل فوق الهضابِ تناوشه جارحاتُ الفلأُ
كسادمه الأَرْضُ بالأرجوانِ وأثقل بالعطر ريح الصبا
وعقرٌ منه بهيَّ الجبينِ ولكن عفاراً يزيد البها
لعمرك هذا مماتُ الرجالِ ومن رام موتاً شريفاً فذا

وهو يتمنى أن يقتل ويسفك دمه دفاعاً عن حقوق بلاده السليبية ، وقد أصبح يستشعر في قوة غريزة الثأر وحب الدم المسفوح والتشفى برؤيته حتى ليفرحه صليل السلاح ومسيل الدماء ، وأن يرى من حوله الشهداء وقد تناثرت أشلاؤهم وتناهبتا نسور السماء وحوش الأرض ، وسالت دماؤهم القانية وتناهبت رياح الصبا عطورها ، وتعفر جبينهم البهي بالتراب عفاراً يزيد في بهائه وجماله ، فذلك في رأيه هو الموت الشريف موت الرجال الأحرار.

وكان الشعب المصرى يعانى من الحكم الفاسد ومن الأحزاب ، التى داست كرامة الوطن فى سبيل المآرب العاجلة ، التى مضت تكمم الأفواه وتحد من الحرية ممكنة لحواشى قصر عابدين من التغلغل فى الحكم ، مترامية على حواشى قصر الدويارة الإنجليز ، متغافلة عن مطالب الأمة فى الاستقلال والحياة الحرة الكريمة. ويبلغ الحنق الذروة وتموج الصدور بالحفيظة ، وإذا ثورتنا المحيطة تنبثق فى ٢٣ من يولية لسنة ١٩٥٢ معبرة عن إرادة الشعب ، ويتهاوى فاروق والأحزاب الفاسدة والاستغلال والإقطاع ، وتُترد إلى الشعب حرته ، ويتخذ الأسباب لحياة اشتراكية سليمة ، ويتغنى شعراء مصر بالثورة مبتهجين من مثل قول عباس العقاد :

أهلاً بنيروزٍ وليدُ أهلاً بميلادٍ سعيدُ
يوم جديد قلتُ بل عهد على مصر جديدُ
عهد تصان كرامة فيه وتتبعها جهود
لا تستندلٌ ولا تُسا م على الهوى سوم العبيدُ
ما كان غير الصالحين لهم قرار فى الوجود
مصر الكنانة كعبةٌ قررت على حصنٍ وطيد

والعقاد يمثل الثورة عيداً كأعياد النيروز أو بعبارة أخرى كأعياد الربيع ، وإنه لميلاد حياة جديدة وعهد مشرق باسم تصان فيه كرامة مصر التى طالما أهدرها القصر والإنجليز والحكام الفاسدون ، عهد تتحرر فيه من الذل والهوا والعبودية . ويقول إنه لن يعيش بمصر بعد الآن

سوى العاملين النافعين ، وإنها خليقة بحياة كريمة ، إنها كعبة مقدسة ، وقد استقرت على أسس وطيدة .

وكان الجيش البريطاني في سنة ١٩٣٩ قد اقتحم ليبيا ، ولم يلبث الإنجليز أن قسموها مع فرنسا وأمريكا إلى ثلاث مناطق ، لكل منهم منطقة ، فللإنجليز برقة وطرابلس وفرنسا فزان ولأمريكا بعض القواعد الجوية في طرابلس . وما زالت ليبيا بعد الحرب تناضل من أجل استقلالها حتى إذا كانت سنة ١٩٥٥ جلت فرنسا عن فزان ، وبقيت لأمريكا وإنجلترا بعض القواعد الجوية ، وانعقد أمل الشعب العربي الشقيق على الخلاص من هذه الاغلال إلى أن قامت ثورة الفاتح في سبتمبر لسنة ١٩٦٩ ، فردت إلى الشعب حرية ، محطمة كل ما كبله به الاستعمار الآثم من أغلال ، وشحقة له كل ما كان يطمح إليه من حياة عزيزة كريمة .

وإذا التفتنا إلى أقصى الشمال الإفريقي وجدنا الملك محمداً الخامس يقود شعبه لنضال فرنسا نضالاً عتيفاً ، عن طريق المظاهرات والتجمعات والمقالات النارية في الصحف والخطب الملتهبة ، وكانت له مواقف عظيمة ضد الاستعمار الفرنسي جعلت العدو ينفية عن دياره ، وثارَت البلاد ثورة ضارية فاضطرت فرنسا إلى أن تعيده إلى وطنه ، وأن تعطى المغرب استقلاله سنة ١٩٥٢ إذ أخفقت في كل ما اتخذته من وسائل القمع والإرهاب . وولتقي في أثناء هذا النضال بشعر كثير يستنهض الشعب للمقاومة والثورة على العدو الغاصب من مثل قول محمد الجندى :

عن يميني وعن شمالي قيود وأماي جيل معني شريد

يتلاشى مع الزمان ويفنى ويعانى ما لا يعانى العبيد
ضرب السدّ حوله ورماه بسهام الردى رقيبٌ عتيد
وكأن المغير أمضى عقوداً مع هذا الزمان ليست تبديد
وكأن الشباب منا هباء ونفوس الأحرار شيء زهيد

وهو يصور القيود والأغلال التي وضعها المحتل الغادر حول الشعب
واغتصابه لطيبات أرضه ، حتى غدت أفراده في ديارها مشردة تعاني
من رق العبودية ، وقد ضرب من حولها نطاقاً . وما يزال يرميها بسهام الموت
وكأنما عاهدته الدهر عهداً لا ينتمى أن يظل مسيطراً متحكماً ، وكان
الشباب ليس شيئاً مذكوراً ، وكان نفوس الأحرار لا قيمة لها ولا وزن .
ومن قديم كانت تونس تجاهد فرنسا جهاداً مستميتاً ، وتغنى جهادها
والأمها شاعرها المبدع الشابي ، وله أشعار كثيرة يصوبها حراباً مسمومة
إلى صدر المستعمر الغاشم ، مستهزأً هم شعبه لكفاحه ، مستثيراً
حميته من مثل قوله اللدائر علي كل لسان :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلى ولا بد للقيّد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جوّها واندرثر
كذلك قالت لي الكائنات وحدثني روحها المستتر
ودمدت الريح بين الفجاج وفوق الجبال وتحت الشجر

إذا ما طمحت إلى غايةٍ لبستُ المنى وخلعتُ الحذر
ولم أتخوفُ وعور الشُّعابِ ولا كِيَّةَ اللهبِ المستعرِ
ومن لا يحب صعود الجبالِ يعيشُ أبداً الدهر بين الحُفَرِ
والشابي يقول إن الحياة الحرة إرادة ، والشعب لا يناها إلا إذا صحت
إرادته على أن يحياها ، وحينئذ ينزل القدر على إرادته المصممة ، فينجلي
الليل الكثيف وينجاب سواده عن الأفق وتتحطم القيود والأغلال ،
ويقول إن من لم يحسن الحياة إحساساً متعمقاً يصبح فيها هباء لا اسم
له ولا ذكر . ويصيح : هكذا حدثت الكائنات هامة في وعيه ،
بل إن الريح لتدمدم بذلك وترجز في كل مكان قائلة إنها إذا ما طمحت
إلى غاية وضعتها نصب عينها مصممة على الظفر بها نافضة عنها كل
خوف وحذر ، فلا الشعاب الوعرة تخافها ولأدفة النار الملتبها تصدها .
وتلك سنة الحياة ، كل شخص وإرادته وعزيمته وهمته ، فمن لم يحب
تسقم القمم وارتقاء الذرى عاش في الحفر ومهاوى الحياة عيشة
الدليل المهين .

وتمضى ثورتنا المجيدة في بناء حياتنا المصرية الاشتراكية ، وتعلن حرباً
شعواء على المستعمر الغاصب لديارنا منذ سنة ١٨٨٢ وتصمم على إجلائه ،
ويجلو خانعاً عن بلدنا ، فيتحقق أمل عظيم ، بل حلم رائع ، طالما حلم
به الشعب . ويصبح يوم هذا الجلاء عيداً عظيماً من أعيادنا ، ويلحقه
عيد ثان هو عيد تأميم قناة السويس ، وتجزع إنجلترا وفرنسا وعميلتهما إسرائيل
ويهجمون هجومهم الغادر على بور سعيد السنة ١٩٥٦ . ويهب أهلها

شيباً وشباناً ونساء للنضال ، وسرعان ما يتزلون بالأعداء صواعق غضبهم
ويترنحون من هول الضربات واللطمات المميتة التي كالأهالهم أبطال
بور سعيد . وما يلبثون أن يجمعوا فلولهم ويولوا الأديار إلى غير مأب ،
إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وقد ركبهم الاندحار والذل والعار .
وكان الشعراء في هذه الأثناء يرمونهم بشواظ أشعارهم الملتهب
من مثل « دع سمائي فسماي محرقة » لكamal عبد الحلیم ، ونشيد « أنا
النيل مقبرة للغزاة » لمحمود حسن اسماعيل ونشيد « الله اكبر فوق
كيد المعتدى » لعبد الله شمس الدين . وهي أناشيد تصور ثبات المصريين
في المعركة حتى الموت ، وحتى يعصفوا بالأعداء ويذيقوهم وبال عدوانهم
الأثيم . ونظم كثير من الشعراء قصائد تصور هزيمة الأعداء الساحقة
ورحيل أشباحهم الذنسة عن البلاد ، والعار يجللهم ، فقد جاء وايكشرون
عن أنيابهم الحداد ، فحطمانها تحطيا باستبسالنا وزيادنا عن
وطننا ذباداً بذلنا فيه المهج فداء له ولحرية وعزته . حق في يدنا وقوة
في نفوسنا مزقنا بهما العدو تمزيقاً ، وكان أول تمزيق مميت له ما ألحقناه
بجنود المظلات أو بعارة أخرى ما ألحقته بور سعيد بهم ، فقد قنصت
سرهم الأول وأتت عليه ، واستدارت للغزاة اللثام تحصد رءوسهم حصداً ،
وكانما كانت شباكاً كبيرة لا يلبثون أن يتعثروا في خيوطها ويصادوا
صيداً ويذبحوا ذبحاً . وذلك تاريخ مصر ، مقبرة دائماً للغزاة على مر العصور
لما يحرس حدودها وأطرافها من أبنائها الشجعان الأبطال . وصاح في
وجوه الأعداء كثير من شعراء البلاد العربية ، يضمون حفيظة الشعب
ويلهبون نضاله تارة بالقصيدة وتارة بالشعر الحر الحديد على

شاكلة منظومة نزار قباني التي وضعها في شكل رسائل من جندي مصري إلى أبيه أرسلها من ميدان المعركة حيث تمتزج البطولة بالجراح وبالسلاح، وتمضي رسالته الثالثة على هذا النمط :

الآن أفنينا فلول الهابطين

أبتاه لو شاهدتهم يتساقطون

وترى قراصنة البحار الإنكليز

كثمار مشمشة عجز

يتساقطون . . . يتأرجحون

تحت المظلات الطعينة مثل مشنوق تدلى في سكون

وبنادق الشعب العظيم تصيدهم زرق العيون

لم يبق فلاح على محراثه إلا وجاء

لم يبق سكين ولا فأس ولا حجر على كتف الطريق

إلا وجاء

ليرد قطاع الطريق

ليخط حرةً واحدةً حرةً بمعركة البقاء

والرسالة تعلن فناء الهابطين من المظلات والأسطول الإنجليزي

وهم يتساقطون كأوراق الخريف وبنادق الشعب تحصدهم في الأرض

كما تحصدهم في الجو ، الشعب المصمم ذو الإرادة الجبارة الذي لم يبق منه فلاح إلا وجاء ، ولم يبق عند مصرى سكين . ولا فأس ولا حجر إلا استخدمه في المعركة العنيفة ، ليرد قطاع الطريق ويسحق ضلوعهم سحقاً ، وليخط حرفاً مضيئاً منيراً في معركة البقاء .

وظل العراق محتلاً بالإنجليز الغاشمين إلى أن قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٨ ثم ثورة فبراير سنة ١٩٦٣ فنفض عنه الاحتلال وأخذ في بناء حياته بناء مستقلاً ، إذ ردت عليه حريته وسيادته . وكان البركان الجزائرى قد تفجر منذ سنة ١٩٥٤ وأخذ يقذف بحممه وسيوله في وجوه المستعمر الفرنسى وجنوده يشويها شياً ، بل لقد أخذ يحرقهم في أتونيه حرقاً ، وامتد الحرق والشى ، وطيب البركان يزداد كل يوم أواره ، والمستعمر يحن جنونه ويرسل بالجيوش تلو الجيوش ، ويجمع أمر غصص الحرب والقتال ، وكأنما تحولت الجزائر إلى مقبرة كبيرة لهم ، بل إلى جحيم يأتي عليهم جماعات وأفراد ، وأبطال الجزائر ثابتون مستبسلون قد أرنصوا حياتهم وبذلوا ليحققوا لوطنهم استقلاله وسيادته المهدرة . ولا فصل إلى سنة ١٩٦٢ حتى تهد قوى البغي والعدوان ، ولا يجد المستعمر أمامه سوى الاستسلام ، فيرد صاغراً إلى الجزائر حريتها واستقلالها ، ويخرج منها مهزوماً مدحوراً إلى غير رجعة . وكان شعراء الجزائر يضرمون لهب هذا النضال المجيد بأشعار حماسية نارية من مثل قول محمد الصالح على لسان ناثر :

يا رفاقى فى الدررى فى السجن فى القبر وفى آلام جوعى

يا جنون الثورة الحمراء يجتاح كيانى ومغارات ربوعى

أقسمتُ أمي بقيدي بجروحي سوف لا تمسح من عيني دموعي
أقسمت أن تغسل الجرح وتغدو شعلة تضرم أحقاد الجموع

وهو ينادى رفاقه في المعركة الممتدة إلى ذرى الجبال وفي أيام سجنه
وعذابه كفى يضرّبوا العدو الضربة القاضية ، وينادي جنون الثورة
الدائمة الذي يجرى في كل كيانه وفي كل مغارات بلاده حتى يثار
لكرامة الوطن السليبة . ويقول إن أمه أقسمت بمقدسات أبطال المعركة
واستبسالهم ، أقسمت بقيودهم وآلامهم وجروحهم ، أن لا تمسح من عينه
الدموع ، وأن تغسل الجرح الدائم مستبشرة ، وتتحوّل بدورها مثل كل
جزائرية إلى شعلة تلهب أحقاد الشباب . ويرتفع صوت شعراء العرب
في كل قطر محمسين الجزائريين وموقدين حميتهم مهديين المستعمر
ومتوعدين منذرين من مثل قول الجواهري شاعر العراق :

دعى شَفَرَاتِ سِوْفِ الطَّغَاةِ تَطْبِقُ مِنْكَ عَلَى الْمَقْطَعِ
فَأَنْشُودَةَ الْمَجْدِ مَا وَقَعَتْ عَلَى غَيْرِ أوردَةٍ قُطِعِ
وَحَلَّ النَّفُوسِ الْعَذَابِ الصُّلَابِ تَسِيلُ عَلَى الْأَسْلِ الشُّرْعِ
فَسَارِيَةُ الْعَلَمِ الْمَسْتَقِلِّ بغير يد الموت لم ترفع
جزائرُ يا جَدَثِ الغاصِبِ بينَ بوركتِ في الموتِ من مريع
جزائرُ كيلى بصاعى حقوقِ عمِّ في ضراوته مقلدِ
والجواهري يريد للجزائر أن تقدم على مذبح الحرية نفسها لتنوشها

السيوف ، ولتحليل بعض أبنائها أشلاء ، فالأم لا تنال المجد إلا إذا قدّمت للقتل أفلاذ أكبادها ، وسالت دماؤهم المملوءة قوة وصلابة على أسنة السيوف والرماح ، فعلى أشلائهم وبرك دمائهم تُرفَعُ سارية العلم المستقل الظافر . ويهتف بالجزائر أنها تحولت قبراً كبيراً للفرنسيين الغاصبين ، وهى تكيل لهم الصاع صاعين ، صاعى حقوق عمّ فى ضراوته ، يطعن ، فيصمى ، يميناً وشمالاً . وتنتصر الجزائر وتأخذ فى بناء حياتها الحرة الاشتراكية الجديدة .

وتدور بالعرب الأيام حتى يونيه سنة ١٩٦٧ وتعتدى إسرائيل على مصر والأردن وسوريا والحماصة تبلغ الذروة ، وكل عربى يؤمن بالانصر واسترداد الوطن المقدس الذى اغتصبه الصهيونيون . وارتفع صياح الشعراء يحمسون ويؤججون لهيب النضال فى نفوس المحاربين بعد أن رفض الشعب العربى بكل قوته الهزيمة مصمماً منذ التاسع من يونيو أن يمحو آثار العدوان محواً ، وفى ذلك يقول محمود حسن إسماعيل :

سيظل ينهش فى عروقى ثأرها حتى تكبر للصباح ديارها
حتى يداهما الضحى بيمينه وبها يُفكُّ من القيود إسارها
حتى يهلل فرحةً شهداؤها للنور ، يحمل فجره أحرارها
حتى تزمجر بالفيالق حومة عربية لا يستريح أوراها
حتى يبید الغاصبون بأرضها وتبید فوق رفاتهم أوزارها
فالشاعر موتور فلسطين ، ويقول إنه سيظل يأكل حقد الثأر عروقه ،

حتى تتألق بشائر الصباح المشرق بالنصر الحاسم في أرضها ، وتترامى أضواء ضحاه في جنبات ديارها ، وشعلة الحرية تحرق قيودها بين تهليل الشهداء وفرحهم بالنور الغامر الذي فجره أحرار العروبة الأبية ، وفيالقههم وكتائبهم تزار وتزجر مدمرةً للغاصبين الآثمين وقاضيةً قضاء مبرماً على أوزارهم وآثامهم ومأخية لها ولم من الوجود محوآ .

وراحت إسرائيل تتبجح بانتصارها ومعروف أن انتصاراً في معركة أو معارك أو حتى في حرب لا يعنى فرض تاريخ جديد على منطقة وشعبها الكبير ، بل لا بد لهذا الشعب من الانتصار الحاسم . وانتهزت إسرائيل الفرصة فضت تتحدث عن التسوية والمفاوضات المباشرة متعامية عما يؤدي إليه ذلك من كارثة القبول بالوجود الصهيوني والاعتراف بكيان إسرائيل السياسى وسيادتها الإقليمية . وإن العرب في كل بلد لمصممون على مقاومة مخططات إسرائيل والصهيونيين والمضى في الحرب والقتال ، حتى ينتزعوا من أيديهم قهراً ما سلبوه واغتصبوه . وقد عرضت القضية على الأمم المتحدة غير أنها أدخلتها في متاهات وسرايب تبعث القلق وتدعو إلى الحذر ، واستقر في نفوس العرب أن الحق المسلوب لا يردده إلا أهله .

ومن التطورات العظيمة التي حدثت بعد النكسة أن عرب فلسطين اضطلعوا بالقضية فعاتت إلى أيديهم ، وسرعان ما تبلورت في أعمال المقاومة العسكرية التي ينهض بها الفدائيون بسلاء ، مما جعل إسرائيل تستغيث من حين إلى حين بمجلس الأمن باكية مولولة معبرة عن الذعر والطلع الذى يصبه في نفسها الفدائيون الفلسطينيون ، وقد جاءوها

من الأردن ومن كل فجّ يحملون في قلوبهم غضباً كألسنة النار على من سبوا أرض الآباء والأجداد وأخرجوا أهلها من ديارهم إلى العراء، حيث لا مأوى لهم سوى البؤس والضنك والتشرد، بعد أن حولوا بعض القرى إلى مجازر وحشية كقرية دير ياسين وقرية كفر قاسم، وقرى أخرى محوها من الوجود كقرية زيتة وقرية عمواس .

وبالاهول المروع ! إنها قصة الوطن المسلوب ودم أهله المسفوك وطرد المتبقين ليصبحوا لاجئين مشردين يعيشون في الخيام ، أو إذا استطاعوا ، في أكواخ من اللبن كالخرابات المهجورة ، حتى يخفوا وتذوى أعوادهم ، وكأنما يريدون لهم أن يعيشوا بدون حياة أمواتاً ، فراشهم الرمل ولحافهم السماء . ومن ظلوا معهم ولم يهاجروا بعد سنة ١٩٤٨ سخروهم في أعمالهم بأجور زهيدة ، حتى يستكينوا ويدلوا ، وكل من حاول أن يقف في طريقهم دون ثمار أرضه وطيباتها مزقوه إرباً ، أو ألقوه في غياهب السجون . وظنوا أنهم يقضون بذلك على الروح العربية ، وخاب ظنهم وفألمهم ، فقد دقت ساعة القصاص ، وهب الجليل الفلسطيني الجديد الذى عاش المحنة غريباً عن دياره ، هب بعد نكبة سنة ١٩٦٧ ليرد كيد العدو في نحره ، وقد صمم على الثأر لأهله ووطنه المباح حتى تترنح إسرائيل في برك من الدم وتستسلم خانعة متخاذلة . وما يهز نفس كل عربى أن الجليل الفلسطيني ، الذى نشأ أسيراً في إسرائيل يروج ويعربى ويعذب في زنانات السجون أشنع ألوان التعذيب ، ظل صامداً لا يذل ولا يهون ، بل لقد مضى يقاوم ويتحدى منتصب القامة مرفوع الهامة ، يتقدمه صف مرصوص من الشعراء يهادر ويزجر ، كسيل من النار ، بل

كلهب عاصف يدوى ويدمدم غاضباً لوطنه وثائراً مع الثوار في كل بلد على الاستعمار ، مع ثوار الجزائر وثوار العراق واليمن وكوبا ، ومع ثورة مصر وجلاء الغاصب والسدا العالى ومعركة بور سعيد . ويعنف بهم الصهيونيون ويزجون بهم في السجون ، ويظلون يقاومون في إصرار هائل وهم في القيود والسلاسل لا يبالون ولا يهابون ، بل كل يوم يزدادون غضباً وحمية وحقداً ومرارة ، فلا غرابة أن تستحيل أشعارهم نيراناً ملتهبة مستعرة على نحو ما نقرأ في أشعار توفيق زياد وسميح القاسم ومحمود درويش ، ولأولهم منظومة بعد الخامس من شهر يونية سنة ١٩٦٧ يقول فيها :

يا بلادى أمس لم نطف على حفنة ماء

ولذا لن نغرق الساعة في حفنة ماء

من هنا مروا إلى الشرق غماماً أسوداً

يطشون الزهر والأطفال والقمح وحبات الندى

وينضون عداوات وحقداً وقبوراً ومُدَى

من هنا سوف يعودون وإن طال المدى

لا تقولوا لى انتصرنا

إن هذا النصر شر من هزيمه

نحن لا ننظر للسطح ولكننا نرى عمق الجريمة

إننا للمرة الألف نقول :

لا وحق الضوء

من هذا التراب الحر لن نفقد ذره
إننا لن ننحني للنار والفولاذ يوماً قيد شعره

كَبُوة هذى وكم

يحدث أن يكبو الهمام

إنها للخلف كانت خطوة

من أجل عَشْرٍ للأمام

وزياد يقول لبلاده لا تيأسى لم نغرق بعد قيام إسرائيل في سنة ١٩٤٨
ولن نغرق في سنة ١٩٦٧ وكيف نغرق في حفنة ماء ١٢ لقد مروا
بديارنا غماماً مظالمًا يطئون كل مافيهِ ويسيلون عداً وحقدًا وموتًا وخناجر
مسمومة ، ولكنهم سيعودون مدحورين مهزومين وإن طال الزمن . ويتجه
للصهيونيين قائلاً : لا تصيحوا انتصرنا فإن نصركم في حقيقته هزيمة
بل شر من هزيمة ؛ لما وراءه من دوافع الجريمة ، وسنظل نصرخ مقسمين
بالضياء الباهر أننا لن نفقد ذرة من تراب أرضنا الحر ، وإن نطأ طيُّ
الرأس للنار والحديد ، إنها كبوة وقد يكبو الهمام ، وإن كانت خطوة
للخلف فإنها استعداد لقفزة تبلغ عشر خطوات إلى الأمام .

ويصدر سميح القاسم عن هذا الصمود العاتي في منظومته عن
القدائي ، وفيها يهتف ، وقد استشهد قدائي بإحدى المعارك :

خَلَّوْا الْقَتِيلَ مَكْفَنًا بِشِيَابِهِ

خَلَّوْهُ فِي السَّفْحِ الْخَبِيرِ بِمَا بِهِ

هَلْ تَسْمَعُونَ ؟ دَعْوَهُ نَسْرًا دَمِيًّا

بَيْنَ الصَّخُورِ يَغِيبُ عَنْ أَحْبَابِهِ

خَلَّوْهُ تَحْتَ الشَّمْسِ تَحْضُنُ وَجْهَهُ

رِيحٌ مَطِيئَةٌ بِأَرْضِ شَبَابِهِ

وَعَلَى السَّهْلِ الصَّفْرِ رَجَعُ نَدَائِهِ

يَا آهًا بِالْمَوْتِ لَسْتُ بِآبِهِ

خَذْنِي إِلَى بَيْتِي

أَرْحُ خَذْنِي عَلَى أَعْتَابِهِ

وَأَبُوسُ مَقْبِضُ بَابِهِ

خَذْنِي إِلَى كَرَمِ أَمُوتِ مَلُوعًا

مَا لَمْ أَكْحَلْ نَاطِرِي بِتَرَابِهِ

يَا مَنْ وَرَانِي لَا تَخُونُوا مَوْعِدِي

هَذِي شَرَابِيْنِي

خَذُوهَا وَانْسَجُوا مِنْهَا

بيارق نسلنا المتمرد

وسميح يطلب إلى الرفاق أن يدَعُوا الشهيد مكفناً بثيابه المضرجة
 بالدماء، وأن يدعوه في السفح نَسْراً دائماً بين الصخور يغيب عن رفاقه ،
 ولا يواروا جثمانه ، بل يتركوه في العراء تحت الشمس تعانق وجهه الرياح
 المحملة بشذى أرض شبابه ، ومن تحته السهول المخزونة يتردد فيها صدى
 ندائه الحار : إنني لا آبه بالموت ، فقد مت كما أريد وفي المكان الذي
 اخترت ، وكل منى أن أودع بيتي الوداع الأخير وأريح خدى على
 أعتابه وأقبل مقبض بابيه وأكحل ناظري بكرمه وترابه . وتجملجل منه صيحة :
 يا من ورأى من الرفاق وفوا بالوعود والعهود ، وهذه شرايبي خذوها
 وانسجوا منها بيارق أبنائنا حتى ينشأوا نائرين ، بل حتى يصبحوا فدايين
 يسحقون الصهيونيين سحقاً ، بل حتى يصبحوا أدوات دموية تدمرهم
 تدميراً ، وتفترق فلولهم من جحيم الموت فراراً رهيباً .

وبنفس هذه الروح المتمردة العاتية ينسج محمود درويش منظوماته
 التي كتبها بعد النكسة ، مجسداً فيها الصمود للعدو والثبات
 في المعركة حتى يوم النصر القريب ، مردداً أن الهزيمة جرح يضاف
 إلى الجرح القديم ، جرح لا بد أن يعقبه الانتقام ، وأن الهزيمة لا تعني
 الاستسلام ، بل تعني النفوذ من لهيها السنة نارتندلع على رءوس العدو
 وتحطمها حطماً ، وإنه ليصبح من أعماقه :

خسرت حلماً جميلاً

خسرت لسع الزنابق

وكان ليلى طويلاً

على سياج الحدائق

وما خسرت السبيلاً

فكل ما في النكسة أنه خسر حليماً بالقضاء على إسرائيل في سنة ١٩٦٧ قضاء مبرماً ، وخسر ما كان ينبغي أن يتزل بالصهيونيين من بروق الموت وصواعقه ، وكان قد طال الظلام الداجي الذي مدّه على الوطن الحبيب عشرين عاماً ، وهو ينتظر بفاغ الصبر ساعة النصر الحاسم ، ولكن ذلك كله لم يكسر نفسه فقد بقيت لها قوتها وصلابتها ، إذ السبيل لتحقيق الحلم الرائع لا يزال مفتوحاً . وقد اشتعلت في نفوس أبناء عرب فلسطين ، بل في نفوس العرب جميعاً حفدة الأبطال الذين فتحوا العالم وأخضعوه لسلطانهم ، نار الغضب ، وإن لهيها ليتعالى على أيدي الفدائيين وفي كل بلد عربي . وما ارتفاع ألوية الثورة التحررية في السودان وليبيا الشقيقين وتصفية القواعد الأجنبية في العظم وهو يلس إلا لإرهاص عظيم بالنصر ، وإن بشائره لتدق من الخليج إلى المحيط .

الفهرس

صفحة	مقدمة
٧- ٥	
١٦- ٩	(١) معنى البطولة
٣١- ١٧	(٢) فى الجاهلية
٥٥- ٣٢	(٣) فى الإسلام
٨٢- ٥٦	(٤) فى الحروب مع الروم
١٠٨- ٨٣	(٥) فى الحروب الصليبية والمغولية
١٥٩-١٠٩	(٦) فى معارك التحرير

١٩٨٤ / ٣١٢٨	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٨٦٠-٤	الترقيم الدولى

١ / ٨٣ / ١٧٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.٠)

